سارة وهاجر



شوقي عبد الحكيم

سارة وهاجر

سارة وهاجر

تأليف
شوقي عبد الحكيم



سارة وهاجر

شوقي عبد الحكيم

رقم إيداع ١٧٩٩٩ / ٢٠١٤
تدمك: ٤ ١٣٨ ٧٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ +   **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات

هذه البالاد الشعرية الشعائرية
الموسيقية العربية

باتساع ظاهرة حركات التحرر الوطني والقومي ذات الطابع الآسيوي الإسلامي، بريادة الثورة الفلسطينية العربية والأفغانستانية، وما سيتبعها في تركيا والباكستان وبنغلاديش، باتساع رقعة الثورة العربية المتلاحمة مع الإسلامية، يصبح مفيدًا إعادة الالتفات لتراثنا العربي والإسلامي، ومن منطلقات متكافئة مع الحتميات العلمية التقنية، والعقائدية الثورية الاشتراكية، وفي اتجاه عقلنة هذا التراث المتراكم، خاصَّةً حصيلة عالمنا العربي والإسلامي، من السير والملاحم والبالاد،[1] ومنه «سارة وهاجر» التي ننشر نصها الشعري الفولكلوري[2] ضمن هذا الكتاب، من منطلقٍ قَوامُه الحفاظ على قيم وجماليات هذا التراث الفولكلوري، الذي يشاركنا فيه شعوب الكيانات الإسلامية، التي أصبحت تولي اهتمامها الأقصى لإعادة تناول وتجدد هذه البقايا أو الموروثات الإثنوجرافية الثقافية، بما يستلزم تحقيق المزيد من الاتجاه والتصويب، نحو بلورة ماهية عربية، قوامها اللاانفصال عن الأسرة الإسلامية، مع الأخذ في الاعتبار عدم الافتقاد فيها، مع تجاوز انسلاباتها المستفحلة مع مطلع عام ٨٠ بشكل لا يطاق.

فليكن مدخلنا للماهية العربية الثورية، هو أنْ تجيء علاقة عقلانية متسقة بالجماعة وانتفاضاتها، وحاجتها الملحة إلى وعي جديد عقلاني حذر، يجيء وينبع ويزدهر، عبر حقول التراث وحتمية التوارث والتواتر لهذا الإرث الثقافي الحضاري بالمعنى الإثنوجرافي،

---

[1] القصص الشعري الإنشادي.

[2] النص الشفهي الإنشادي، الذي جمعته وحققته من أفواه المدَّاحين حوالي عام ١٩٥٢م.

المتضمن بالضرورة للمنتجات الروحية والشعائرية، فلعل في إعادة الالتفات لحقول التراث الفولكلوري والأسطوري العربي الإسلامي ما يُفضي إلى مزيد من تفهم ظواهره، ولنقل وجوده الجديد، أو حده الثالث الذي يجيء اليوم ماثلًا عبر اكتمال ومخاض الثورتين الكبريين، الفلسطينية والمصرية الماثلة.

ففي إعادة الالتفات إلى هذا التراث من منطلقات عقلية، ودون عزلة عن المضمون الطبقي للثورة العربية المستقبلية الاشتراكية، أهمية في التبصير بالعمل الثوري ذاته عن طريق هذه السير والملاحم شديدة الانتشار بين شعوبنا.

وأذكر مقولة للناقد الأدبي «مارتن إيزلز» يذكر فيها أنَّ المسلسلات الدرامية التليفزيونية حين تخرج إلى أقصى درجات انتشارها الجماهيري، فإنها في هذه الحالة تصبح كبديل معاصر للملاحم والسير الشعبية، والبالاد الشعرية الموسيقية، التي كان ينشدها رواة ومداحو ومغنُّو العالم القديم.

وعلى هذا النحو كان الانتشار اللامتناهي للسير والملاحم الشعبية، عبر ساحات الأسواق والموالد، ومشارب الشاي وأسواق عكاظ القديمة، حيث كان يجري إنشادها وحكيها، والإبداع في إيصال مواقفها التراجيدية — بل يمكن القول الميلودرامية — الغارقة في بحار الدم والدموع والتجبر الطبقي البربري الوحشي.

وتكثر أمثال هذه السير والملاحم والبالاد، ذات السمات العربية القومية بأكثر من المحلية والإقليمية، مثل قصتنا الشعرية هذه «سارة وهاجر» في المجتمعات الأكثر أمية، كما أنَّ من خصائصها التواجد في المجتمعات المغرقة أو الموغلة في عبادة السلف، فعلى أرض هذه المجتمعات السلفية، تجد هذه السير والملاحم ازدهارها وتواترها، تلك التي تخالط فيها الأساطير والخرافات، كلا الزمان والمكان، أو التاريخ والكيانات، وكلا الشرطين سواء؛ الإغراق في الأمية إلى حد تقديس أعلامها، والتبتل بالسلف — الصالح — الأمي، أو آفة السلفية وتحجرها في طبع الماضي المندثر الغابر على الحاضر الأدنى الماثل، باستخدام كل وسائل وآلات التعسف السلطوي للتراث الخالد، إلى حد نطح جدران كل تعصب.

وقصتنا التي نقدمها — سارة وهاجر — من نوع البالاد، وهي تسمية أطلقت على هذا النوع من الأغاني الفولكلورية الملحمية، التي كانت في منشئها أغاني تؤدى بمصاحبة الموسيقى والرقص، مثل البالاتا الإيطالية.

فهي أغنية ملحمية بأكثر منها ملحمة، أقرب إلى الابتهالات البكائية والجنائزية، مثلها مثل أغاني الشهنامات الفارسية الإيرانية، وقصائد السيد Le cid الفرنسية، وبالادنبلونجز الألمانية Nibelungs الإسكندنافية، والبليانات السوفيتية، والأغاني القصصية التي سبقت اكتمال ملحمة «كاليفالا» الفنلندية، وكذا أغاني رولان، وبيوولف.

ثم بالاد سفند دايرنج Svend Dyring الدينماركية، التي تقارب قصتنا الملحمية «سارة وهاجر»، في أنَّ كلتيهما يشيع فيها الحس النسائي، الذي هو الملمح الأكثر أصالة للجسد الفولكلوري العالمي بأكمله، من حيث الاحتفاء بمأثورات مثلث العائلة الخالد، الزوج والزوجة والابن، وصراع الضرتين، وطقوس الزواج والميلاد، واضطهادات زوجة الأب التي تدفع بالأم في البالاد الدينماركية إلى الخروج من قبرها؛ لتنقذ طفلها القدري المضطهد من براثن زوجة أبيه.

ويرجع ظهور هذا الشكل الأدبي الفولكلوري في التراث العالمي بعامة، فيما بعد القرن الخامس عشر.

ولعبت حركات الإصلاح الديني في الغرب دورًا دافعًا في تنشيده، والاستفادة من رواته ومنشديه المحترفين، مثل النسوة الندابات منشدات البلينا السوفييتية، برغم أنَّ بعض الكنائس في العصور الوسطى حاولت تحريم إنشاده واضطهاد رواته ومنشديه.

ولقد أضفت المدرسة الأسطورية بريادة أندرولانج Andrewlang إرجاع هذه القصص الشعائرية الغنائية إلى عصور موغلة في القدم.

ولا شك في أنَّ بعض نماذج هذه القصص الشعرية الملحمية — البالاد — عمره من عمر الشعائر والممارسات الوثنية الطوطمية الموغلة في القدم، طالما أنه مرتبط بتقويمات ومناسبات دينية يراد لها الحفظ والانتشار، ولو من جانب المؤسسات الدينية التي عادة ما تتحرك في خدمة المسار السلطوي، ولو للعائلات[٣] المنسية، أو التي تضفي صفات وهالات القدسية والتقديس على أنسابها، بما يحفظ لها استمرارها وتواصلها السلطوي الطبقي.

ومن هنا تجيء قصتنا هذه التي تؤرخ للأصول الأولى للعائلة السامية برمتها، للأب السلف إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل أبو العرب.

فالبالاد: قصة شعرية فولكلورية، تروي أحداثًا ملحمية يراد لها الحفظ والاتصال، عادة ما تكون على درجة عالية من الأهمية والخطورة، وعلى مستويات سياسية وشعائرية

---

[٣] ولنقل ذوي الحسب والنسب.

واجتماعية وتقويمية، تنتهي بكاملها عند هدف أخير، هو حفظ البنية الطبقية، دون أي اعتبار لما طرأ على مجتمع أو مجتمعات، هذه السير والبلاد الملحمية من تغيرات في علاقات إنتاجية، وكذا الشروط أو المتطلبات التي يعيش فيها الناس، وعن طريقها وعبرها يتحدد وعيهم.

حيث إنه عند مرحلة معينة من التطور تدخل قوى الإنتاج المادية في صراع مع علاقات الإنتاج القائمة.

فلم يحدث أن اختفى شكل المجتمع قبل أنْ تتطور كل قوى إنتاجه، ومن هذا فَثِقَلُ مثل هذه النصوص، خاصَّةً تلك التي يكون موضوعها الشعائر والمنتجات الروحية، كنصنا هذا — سارة وهاجر — لا يدخل في اعتباره مطلقًا أن تطور الأفكار والمعتقدات يجيء مسايرًا لتطور التاريخ، وما يتبعه من وسائل وعلاقات الإنتاج.

وعلى كلا المستويين الفكري العقائدي والواقعي الدنيوي المادي، ذلك أن مثل هذه الخرافات الغيبية، ما هي — في أحسن الافتراضات — سوى انسلاب للعالم الدنيوي أو الأرضي، المفتقر بالضرورة إلى الوعي بنفسه، وإلى أن «العالم[٤] يجب تغييره لا مجرد تفسيره من جديد»، فالفكر الغيبي هو إسقاط وهمي للعالم الأرضي، اتساقًا مع ثقل هذه الموروثات الروحية المدعمة بسلطة العادة والتوارث، وكذا التفسيرات المغلوطة لكلا التراث والتاريخ.

وعلى هذا فهي في أحسن حالاتها، قصة «أنساب» أو عائلة، أو قبيلة مجللة أو محماة، بما أسماه آرثر تيلور بالانيزم، من روحانيات يضفيها الإنسان على كل شيء،[٥] وبخاصَّة — طبعًا — الطبيعة الموحشة الغامضة من حوله، وحشة وادي فاران أو ما قبل مكة وواديها «غير ذي الزرع»، الذي نفت فيه الإلهة الأنثى القبلية الأم سارة، ضرتها هاجر وابنها إسماعيل.

مع الأخذ في الاعتبار أنَّ العصب أو الجسد الفولكلوري العربي بعامَّةٍ قبائليٌّ، وهو ما يتبدَّى جَلِيًّا في مثل هذه القصص الملحمية القبائلية الأسرية أو القَرابية، بدءًا من حكايات

---

[٤] كما يذكر فيورباخ.

[٥] بدءًا بعلاقاته القرابية، وانتسابه العائلي العشائري القبائلي، ومرورًا بأساطير خلقه ووطنه، ميعاده، وانتهاءً بالكون المحيط.

وفابيولات «أنا وابن عمي على الغريب» و«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، ومرورًا بـ «من فات وترك قديمه تاه وانقطع»، وكيف أنَّ الغربة عن الحِمى — حِمى القبيلة — الذي اتفق على حدوده بسماع ونباح كلاب القبيلة — تقل الأصول وتزول، مع ملاحظة أنَّ الحِمى هو بذاته ما أصبح الوطن بمفهومه الحلقي المحلي والقومي، المتواتر إلى أيامنا.

بل إنَّ هذا الملمح القبلي لفولكلورنا وحكاياتنا ومأثوراتنا بعامة، بالإضافة إلى — أعماله الكبرى — الملاحم والسير بخاصة، فرض وجود بطن أو فخذ من داخل كل قبيلة، ورهط وكيان يحفظ لها أنسابها، التي غالبًا ما تنتهي عند شيث[٦] ابن آدم، الذي عنده تنتهي أنساب جميع البشر.

وهو بالطبع ملمح لا يقتصر على فولكلورنا، بقدر ما هو منسحب على العالم القديم برمته، فأهل نيوزلندة القدماء لديهم — كما يذكر كراب — من تخصصوا في حفظ الأنساب القبائلية، ونفس الشيء بالنسبة للقبائل العبرية، وقبيلة الماجي المجوسية لدى القبائل الفارسية الإيرانية، ثم النسابة العرب، وأشهرهم ابن الكلبي، أو هشام الكلبي، وهو من فحول الميثولوجيين الكلاسيكيين العرب، صاحب كتاب «الأصنام» عن بانثيون مكة العربي الجاهلي قبل الإسلام، وعدد آلهته أو أصنامه من إناث وذكور، الذين وصلوا — كما يذكر — إلى ٣٦٠ صنمًا أو إلهًا.

وطبيعي أن يرتبط بالقبائلية والعشائرية تقديس مطلق للأرض والدم والثأر، ونظم التوريث وحفظ النسل وكذا البنية الطبقية، والزواج وتعدده — الطوطمي — من داخلي لخارجي وأبوي بطرقي لأموي، وما يتبع هذا من الأخذ بنظم تقويمية أو قمرية، كما يشير بهذا الفولكلوريون الإنتروبولجيون، وهو ما لا يزال ساريًا بالنسبة للتقومات[٧] العربية الإسلامية القمرية أو الهجرية، وكذا العبرية.

[٦] أو النبي إدريس، الذي ينسب له — كتحوت في مصر — أنه اخترع الكتابة، وهو يصنف مع الإله «عتل» الحزين المضطهد «عتل المهم»، أحد أبناء أبل أوكرونس في الميثولوجي الكنعاني الفينيقي، وينسب له أنه أول من اخترع الملاحة، كما أنَّ إدريس يصنف مع هرمس وأخنوخ «أساطير وفولكلور العالم العربي»، ص٦١، شوقي عبد الحكيم، كتاب روز اليوسف، ١٩٧٤م.

[٧] من تقويمات قمرية، السنة العربية، والارتباط الموسمي والشعائري بالأطوار القمرية، وأخصها بالطبع الهلال، الذي أصبح شعارًا عامًّا موحدًا للعالم الإسلامي، إلى أيامنا يرصد بالعين المجردة، على طول العواصم العربية والإسلامية.

كما يرتبط بهذه القبائلية وسماتها المحددة، الإغراق في تقديس الأسلاف، أو رفات أجساد ورمم الموتى الغابرين. السلفية أو الماضوية،[٨] مجالها الأول الإتيان بكل معتقدات الأصول المتعالية، من الأسلاف الموتى من الآباء والجدود، إلى حد العبادة أو ما يُعرف بعبادة الأسلاف وتمثُّل وصاياهم ورموزهم. من ذلك: رأس آدم، تابوت العهد، ضريح إبراهيم، حِجر بِكره إسماعيل، وعصا شعيب وموسى، قميص يوسف وعثمان، والصليب، وشارة الهلال ... وهكذا.

ولعلها آفة السلفية المصاحبة لحضاراتنا هذه القبلية العربية، والتي تطل برأسها مفرطة في هذه البلاد الشعائرية الشعرية، وتدفع بنا لاشعوريًّا اليوم — وأمس المندثر — إلى طبع الماضي على الحاضر، على طول الكيانات العربية، فهي بذاتها المياه الجوفية، والتي بمثابة الحارسة لمجمل أبنية المجتمع، والحافظة المهيمنة على بنية الإستراتيجية الطبقية.

وبالتالي فهي تستخدم أسلحتها هذه أشد الاستخدام من جانب الطبقات السلطوية، على طول الكيانات العربية وغير العربية التاريخية إلى أيامنا وواقعنا الماثل.

وتجدر ملاحظة مدى الحفاظ على هذا التراث الذي ينغلف جانبه الروحي الإنيزمي، متسترًا بهالات التقديس، وإنه هو بذاته ما تسرب إلى الثقافة الرسمية، وسخرت له أجهزة الإعلام[٩] الإليكترونية التي من مهامها الأولى التخلص من براثنه، والإفلات من أسره وسحره الدفين، وجمالياته الخادعة المغيبة لكل حس تطوري بروليتاري؛ لاستهداف واقع أبعد من التموضع الواقعي، وما يستلزمه ويفرضه من منتجات روحية وهمية، تقف كمتاريس السجون والمنافي من حول الفرد وطاقاته وعمله.

لذا فالإنسان العربي سيظل سجين هذه القوى، المُسيَّجة[١٠] بالتابو ومؤسساته داخل مجتمعه، ما لم تصبح قوى طلائعه العاملة بقادرة على إيقاف مهازل استغلالاتها السياسية، بإخراجها قسرًا وتشتتًا من جماعاتها وكياناتها بحجج المنع والتحريم، وأنَّ تواجدها يعني تهدم بناءاتها — المقدسة — هذه المتوارثة من السلف الصالح والطالح.

---

[٨] كما أسماها د. الطيب تيزيني «من التراث إلى الثورة»، ابن خلدون، بيروت.

[٩] من راديو وتليفزيون ومطبوعات.

[١٠] كل ما يتصل بانقسام العالم إلى مباح وممنوع، أو محلل ومحرم، وعلى طول الحياة اليومية، بل والوجود بكامله.

على أنَّ هذا لا يعني التقليل من دور وقيم وأهمية إعادة الالتفات بشكل أكبر لتراثنا الملحمي الإنشادي الموسيقي هذا، المبدد على رقعة بلداننا العربية، وما يزال إلى أيامنا هذه يعاني كل اندثار نتيجة للإهمال والتجهيل الذي ما يزال يسود مزالقنا الثقافية.

فالاندثار المحقق لهذا التراث من موسيقي وملحمي وأسطوري وشعري عالي القيمة والأصالة، مرجعه بالطبع الاتساع المتوالي لأجهزة الراديو والترانزستور، وبقية أجهزة الإعلام الإليكتروني.

ويلاحظ أنَّ حَمَلَة هذا التراث المتوارث من مدَّاحين ومنشدين ومغنِّين أو صَيِّيتَة، كانوا في موقع أكثر نجوم مجتمعات ما قبل المعرفة بالراديو؛ أي منذ أقل من نصف القرن الأخير.

ولعلنا ما زلنا نذكر طلائع مداحينا ومُغَنِّينا المرموقين، بعيدًا عن استوديوهات وميكروفونات الإذاعة أو البث، يحوزون كل إعجاب وهم يُنشدون ويتغنون بسير وبالاد وملاحم الملك سيف بن ذي يزن وعنترة، اللتين تجري أحداثهما في جنوب اليمن، ويوسف وزليخة ما بين مصر وفلسطين، ملحمة «خيزران»، التي تجري أحداثها ما بين مدينتي دمشق وحلب؛ حيث إن بطلها تاجر حراير أو أرجوان حلبي، معتاد على التنقل ما بين المدينتين.

وهي واحدة من أشهر الملاحم الغنائية السورية التي عثرت عليها في ريف مصر، ولا أعرف بالدقة مدى انتشارها ومتنوعاتها، وما طرأ عليها في ريف سوريا.

كذلك تجري أحداث ملحمة «الملك فاضل»، أو «سعد اليتيم» في بادية الشام والأردن.

وقد عثرت عليها بإقليم الفيوم عام ١٩٦٥م، وهي واحدة من أهم وأعرق ملاحمنا، حيث إنَّ عمرها أكثر من ألف سنة، فهي تؤرخ للعصر الفاطمي، وتتبدى شخصية بطلها سعد اليتيم، مشابهة ومتطابقة مع شخصية هاملت في تراجيديا شكسبير الشهيرة، حيث إنَّ كلاهما — هاملت وسعد — يصارع عمه قاتل الأب ومغتصب عرشه.

فسعد أو البطل الشعبي لهذه الملحمة المتكاملة وشخصيتها المحورية، يصاحب مولده الخوارق التي تصنفه مع بقية الأطفال الموعودين أو القدريين مثل: إبراهيم، ويوسف، وكرونس، وإيل، وموسى، بل إنَّ أمه تضعه في صندوق وتلقي به في البحر بنفس ما حدث مع النبي موسى وأوزيريس، وتموز، والزير سالم. ويحيى «سعد»، ويكبر على اضطهاد عمه الملك الشرير بدران، مغتصب عرشه بعد أنْ سبق له أنْ اغتصب أباه الملك فاضل

بالاغتيال، إلى أنْ يتحول في الجزء الأخير من الملحمة إلى منتقم إيجابي لأبيه من عمه الشرير بدران.

واللافت أنَّ الملحمة تحفظ لهذين الملكين الأخين، أنهما كانا بدورهما مدَّاحين وحَكَوَاتيَّة، تأكيدًا لتقليد الملك الكاهن المدَّاح في التراث العربي السامي، مثل «اللاويين العبريين»، والملك الكاهن المدَّاح عمرو بن لحي الجرهمي، والشاعر أمية بن أبي الصلت عند الجاهليين.

ولا بأس بالطبع من التوقف قليلًا عند ملحمة «سعد اليتيم»، هذه التي تدور حول محوري الملحمة، وهما: البطل الشعبي، وقصة الحب؛ وذلك من أجل التوقف عند الخصائص الغنائية، ذات الطابع الأوبرالي، أو الأداء الموسيقي والغنائي، بالإضافة للرقص الذي كانت تؤدى به هذه الملاحم والبالاد العربية قبل تدهورها واندثارها.

وتبدأ هذه الملحمة على النحو التالي:

كان الملك فاضل وبدران أخوه
يحكوا[١١] كلام كل العرب يسمعوه
بكره نموت ومالنا ينهبوه
راجل بلا خلفه قليل ذكرته.

وذروة هذه الملحمة في تصوير لحظة اغتيال الملك الشرير بدران لأخيه الملك فاضل، بحربته ذات الأربعة وعشرين مسمارًا من الخلف، على النحو التالي:

الجوقة:

ضربوا بها واتمكنت في حشاه
نفذ الخشب قراطين من سرته
قاموا عرب فاضل ومن كان حداه
مسكوا أمير بدران وطلبوا أذاه
ولما صحى الملك وفاق من دماه.

[١١] أي إنَّ هذين الملكين، كانا يحكيان وينشدان كلامًا، شأن المدَّاحين والحكواتية.

الملك فاضل:

قال اتركوه إياك تطول مدته.

الجوقة:

لما صحى الملك وشافو أخوه
ووقتها العرب كانوا كتفوه.

الملك فاضل:

قال دا أخويا يا رجال سيبوه
دا وعد من الرحمن وآدي حكمته
دا وعد من الرحمن عليه انكتب
دي كل موتة لابن آدم سبب
كلام أقول لكم عليه يا عرب
تعا سندوني بس أنا أحدثه
تعا سندوني بس أنا أكلمه
أقوللو كلام إياك يسمعوا ...
يا خويا حبل الود ما تقطعو
سعد ابن اخوك بعدي تطول يُتْمِتُو
سعد ابن اخوك بعدي يقاسي الهموم
يبات بطول الليل يعد النجوم
غَرورة يا دنيا تاريكي لم تدوم
أمِّنْتها خانت وادي حكمته
من آمن الدهر المشوم لم ربح
يصبح يجد النوح من بعد الفرح
إنْ جت على الغلبان ليلة وانشرح
يصبح يجد النوح في صبحيته
كدب الذي يضحك في هذا الزمان
يا ذلنا بعد الهنا زقنا الهوان.

وتستطرد الملحمة في وصف طقوس غسلة الملك فاضل، وتكفينه بالسندس الأخضر ودفنه في جامع متحف «قليل وَصْفته».[١٢]

وهنا تبدأ سلسلة اضطهادات العم المغتصِب بدران لسعد اليتيم نتيجة لمخاوفه، فيأمر الملك عبيده بانتزاع سعد من أمه الأميرة «فوز» وقتله في شعاب الجبال، لكن العبيد يرقُّون للأم الثاكلة، فينزعون الطفل منها ويلقون به في البحر أو اليم أو النيل، بحسب متنوعات الملحمة في البلدان والبيئات العربية.

وكالعادة يعثر عليه صياد ويربيه، وفي الكتمان تتعرفه ابنة عمه «بدران» الأميرة الجميلة «صبيحة» خطيبته منذ الصغر، وتُفتن به وبمحاسنه وخُلقه، وأصبحت لا تجلس إلَّا وركبتها على ركبته، وعادت صبيحة لتنتقل أحاسيسها الجياشة نحو ابن عمها سعد إلى أمها، وكيف أنه «يشبه لعمي الملك فاضل وآدي جلسته.»

ثم ما تلبث الابنة المحبة صبيحة أنْ تنقل أحاسيسها إلى أبيها الملك بدران، الذي تستبد به المخاوف من أنْ يكون هو بذاته سعد، وأنه لم يمت، وفعلًا تتحقق هواجس الملك، وتبدأ سلسلة جديدة من الاضطهادات لسعد، تنتهي بهربه وفراره من وجه عمه الشرير الحاقد بدران، من بادية الشام إلى أرض مصر، ثم كيف التقى بالمعز لدين الله الفاطمي، فساعده المعز في الانتقام من عمه بدران، وقتله واسترداد عرشه، والزواج من ابنة عمه صبيحة.

وبالنسبة للجانب الإنشادي الموسيقي لهذه الملاحم والمدائح العربية، وأخصه «سارة وهاجر» يلاحظ أنه كان يؤدى قديمًا بأسلوب أقرب إلى الأداء الغنائي الأوبرالي، وهو القاسم المشترك لهذه النصوص الشعرية والشعائرية العربية مجهولة المؤلف، ذلك أنَّ من خصائص النص الشعري بعد تدوينه أنه أشبه بالليبرنو المتعارف عليه في الأوبرا الكلاسيك، وبدايات أوبرا القرن ١٧ وما يلي، فهناك مساحات شعرية وموسيقية للجوقة أو الكورس، ومساحات لكل شخصية مفردة على حدة من شخصيات الملحمة، ومعنى هذا أنَّ هذه الملاحم والقصص الدينية كانت تقدم وتروى على مستمعيها بطريقة أقرب

[١٢] أي: دفن جثمان الملك فاضل في جامع متحف لا يوصف، افترض أنه بالجولان العربية بسوريا، حيث كانت تقيم قبائل «الفضل والنعم» المتعاصرة مع الحضارة الأدومية — ما قبل الألف الثاني ق.م — وأتطلع إلى نشر هذا النص «سعد اليتيم» قريبًا. شوقي عبد الحكيم.

إلى الأداء الأوبرالي، فللجوقة كمعلقةٍ على الأحداث وراوية لها، دورها ومكانها، كما أنَّ لشخصيات الملحمة أو أبطالها — سواء أكانت فردية أو دويتو أو جماعية — أدوارها المحددة شعرًا وإيقاعًا.

وهذه أول خَصِيصَة أو ملمح لهذه النصوص، ومنها نصنا «سارة وهاجر»، كما أنها — على ما يبدو — كانت تقدم قديمًا وقبل اندثارها — بعد انتشار الراديو والتليفزيون — بالأسلوب الصحيح المتوارث، وهو أنْ يكون لكل مغنٍّ ومنشد دوره الثابت والمحدد في النص المروي، لكن ونظرًا للتدهور الذي أصاب فنوننا وآدابنا الفولكلورية، وأخصها فنون مغني الملاحم والسير والمدائح، وهم المدَّاحون، تدهور بالتالي أداؤهم لهذه الملاحم أو الأوبرات الغنائية الموسيقية، فتبددت فرقهم، وأصبحت الفرقة أو الجوقة اليوم — على أحسن الفروض — تتكون من ثلاثة أو أربعة مُغَنِّين وعازفين، وبالتالي لم يعد المجال يسمح لاحتفاظ أبطال الملحمة وشخوصها بأدوارهم المفردة، بالإضافة إلى الجوقة، بل إنَّ التدهور أصاب أيضًا الأداء الموسيقي، فأصبح رتيبًا لا يستقيم في معظم أحواله مع متطلبات النص الشعري وخصائصه الدرامية والتراجيدية.

ولعلها تكون بدايات لأوبرات قومية عربية، لو أننا تمكنا من إعادة جمع هذا التراث الملحمي الموسيقي وتسجيله بحسب الوسائل التقنية، إلى أنْ يحين وتجيء مراحل تطويره واستلهامه، وإعادة صياغته وتوزيعه موسيقيًّا، وهو الحلم الدائم لعديد من موسيقيينا ومُغَنِّينا الأوبراليين.

فلعل الملمح الجوهري للتراث السامي بعامَّة والعربي بخاصَّة، هو التميز بازدهار السير والملاحم والشعر المدائحي والمعلقات، منذ أقدم ملاحم العالم القديم، وهي ملحمة جلجاميش التي تعارف عليها العرب الجاهليون باسم «قلقاميش»، والتي تسبق نظائرها الهلينية — الإلياذة والأوديسة — بحوالي ألفي سنة، كذلك سبقت هذه الملحمة العربية الملحمة الآرية الهندية «الماهابهاراتا»، التي يقال بأنه اشترك في كتابتها مائة شاعر، وتعتبر أطول ملحمة في التاريخ، فيصل طولها إلى ١٠٨ آلاف بيت شعر من أبيات الشعر الثُّمانية المقاطع.

وكما هو معروف فإن للملاحم وظائفها منذ عصور ما قبل المعروفة بالكتابة على المستوى الجماعي أو العشبي؛ لذا فهي وعاء حافظ — سواء للأبنية الأسطورية والطقوسية أو الشعائرية — كما هو الحال مع معظم الملاحم، ومنها الإلياذة والأوديسة، كما قد تؤرخ لحروب وهجرات جماعية، كما يتبدى في الماهابهاراتا وملحمتنا أو سيرتنا الملك سيف بن ذي يزن، والزير سالم، والهلالية، وعنترة، وغيرها.

كذلك قد يكون من أغراض الملحمة الاحتفاء بالأعياد الدينية والتقويمات — كما هو الحادث مع «سارة وهاجر» — التي تؤرخ لبناء الكعبة واستبدال الضحية البشرية بالضحية الحيوانية، أو خروف العيد الكبير، أو عيد اللحم، أو الضحية.

ولقد حاولت جاهدًا الحفاظ على أدق خصائص هذا النص الشعري — سارة وهاجر — بتسجيله صوتيًّا بأداء وغناء مدَّاحيه المحترفين، بإحدى قرى محافظة الفيوم،[١٣] جنوب القاهرة.

وأنشره هنا — دون تدخل يُذكر — بما يحفظ له فونيماته وخصائصه الفولكلورية.

[١٣] حيث الحقل الميداني الذي عملت به في جمع التراث الفولكلوري بعامة، منذ ما يربو على ربع القرن الأخير.

سارة وهاجر (١)

هذا النص الشفهي الفولكلوري العربي

فالقصص الشفهية الشعبية التي اعتدنا سماعها من أفواه المدَّاحين ورواة السير والملاحم، يُنشدونه في المناسبات الاحتفالية والشعائرية، كالحج، والطهور، والأفراح، والأسواق، والتجمعات الشعبية ظلَّ مزدهرًا عشرات القرون، على طول بلداننا العربية، ومنه ملاحم وقصص وبالاد، مثل يوسف وزليخة، وعزيزة ويونس، وأيوب التي تجري أحداثها في بادية الشام، والصحراء الأدومية،[١] وحبيب بن مالك في الجزيرة العربية، والقميص أو رداء النبي محمد، ثم هذه الملحمة الشعرية الهامَّة التي تُحكى ملخصة ورامزة لمجرى الصراع العربي والعبري، والتي تتعرض لخصائص الخليل إبراهيم، وابنه إسماعيل أبو العرب العدنانيين شمال الجزيرة العربية أو السعودية اليوم.

وكذلك تؤرخ هذه القصة الشعرية للعديد من مناسباتنا وممارساتنا الشعائرية، منها — من أحد الجوانب — المصادمات والاضطهادات العبرية العربية، وبناء الكعبة، ونبع بئر زمزم، وحجر إبراهيم الأسود، والتضحيات الحيوانية في عيد الضحية.

فأهمية هذا النص الشعري المدائحي — سارة وهاجر — الذي يتناول جزءًا محددًا من حياة عائلة إبراهيم، ويدور موضوعه بين الضرتين، أو بين سارة زوجة إبراهيم وابنة عمه وأخته[٢] من أبيه لا من أمه، وهاجر جاريتها المصرية.

[١] بادية الشام، وحيث أرض أدوم، التي اشتقَّ منها آدم أبو البشر.

[٢] تاريخ مختصر الدول ابن العبري، ص٢٢، التوراة.

كيف دفعت سارة رَجُلَها إبراهيم لأن يدخل على هاجر جاريتها ويتزوج بها، بعد أنْ أمسكها الله عن الخلف والذرية، ليخلف منها نسلًا.[٣]

وتصف سارة هاجر بأنها «حرية شريفة ومهتدية»، بل هي تبدأ في تبيان رغبتها هذه، والكشف عنها في النص، وهي أنْ يدخل على هاجر جاريتها، منذ اللحظة الأولى «يا خليل الله لايمتة تظل صابر»، بمعنى أنها كانت تواصل إبداء هذه الرغبة دوامًا «بس طاوعني وتزوج بهاجر.»

لكن ما أن يستجيب إبراهيم وتقوم سارة بدورها راضية، وبتحمية ضرتها، أو وصيفتها، أو خادمتها هاجر، وتعطيرها «بالزبد والعطرحنة وخضبتها»، ثم كيف «جلستها» بمعنى تجهيزها للعريس لأخذ وشها وفض بكارتها.

وعلى سبيل التخمين، فقد يكون المعنى الخفي في هذا النص الشفاهي، هو أنَّ سارة قد أدت الدور الذي تقوم به «الداية» أو القابلة[٤] — كما هو معروف — بفتح فخذي العروس عن آخرهما وتمكين العريس من أخذ الوش، أو فض بكارة[٥] عروسه.

وتحبل هاجر في[٦] إسماعيل، وما إنْ تنقضي مدة أشهر الحمل الخمس على مضض من جانب سارة، وتمر على خبائها وتتعرفها، حتى تشب فيها نيران الغيرة، وتلتهمها التهامًا.

وتعلو هامة هذا النص الشعري الغنائي المسرحي بمونولوج سارة الحاد المتصاعد العدواني، وأنا أعني هنا كلمة مونولوج، بمعنى تبادل الحوار والجدل مع الذات، حين تقول سارة:

يا ضرتي بطنك كبيرة
الوحم باين عليكي يا صبية
الوحم باين
عطاك رب العبادي

[٣] أو ابنًا يرث ملك أبيه شيخ القبيلة، الخليل الذي يقال إنه كان ملكًا على دمشق.

[٤] أقدم عمل مارسته المرأة.

[٥] وهو ما لا يزال شائعًا ممارسًا حتى أيامنا، طبقًا لشعائر ليلة الدخلة.

[٦] ربما في ذات الليلة تحمل العروس، طالما أننا نتعامل بآراء آلهة، بأكثر من بشر.

زمن غدار ما بلغتش مرادي
أنا اللي الضنا أكوى فؤادي.

وهنا يستبد بسارة التساؤل:

إيه يكون الرأي يا دنيا بلية
إيه يكون الرأي يا دنيا بلاوي
انجرح كبدي ما لقيتلوش مداوي
يا خليل الله لايمتا تِتَنِّ ناوي[٧]
ياللا خد هاجر وسافر من عليه
ياللا خد هاجر وسافر من قبالي
ارميها برا الخلا ووحش الجبالي.

وخوفًا من الانجراف وراء الغوص في التحليلات الأدبية التقليدية، وهو ما يتنافى إلى حدٍّ مع مداخلنا بالتعرض لهذا التراث الشفهي كفولكلور، بما قد يحرفه ويفقده لأدق خصائصه الإثنوجرافية.

نعود إلى مجرى محاولة الدخول لهذا النص من مداخله السردية الروائية ومدلولاتها التوظيفية الاجتماعية، عبر علاقات أقرب إلى العبودية والتسلط الأبوي الذكري، الواصل إلى حد توعد الابن «إسماعيل» بالذبيحة.

فسارة هنا تكشف عن شخصيتها العاتية المستبدة، تلك التي تتملك كل السلطة[٨] كإلهة أم، وهي حين تتراجع قليلًا لتوهمنا ببشريتها، فإنما لمجرد تقنين فعلتها[٩] وشعيرتها، ويبدو هذا حين اتهمها إبراهيم مهددًا: «ما بتخافيش مولى الموالي»، فعادت سارة وتراجعت قليلًا، وأملت عليه شروطها.[١٠]

---

[٧] إلى متى تظل تنوي.

[٨] من حيث دلالتها الأنثروبولوجية، وليست البيولوجية، للأم العاقر.

[٩] حتى وإنْ تمثلت في النصوص العبرية إلى حد مس جوهر الصراع بين الضرتين، وهو الإرث والميراث، حيث قالت عقب خلفها لإسحاق: «ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني.»

[١٠] التي هدفها الأخير أيضًا الميراث.

إن هاجر جابت بنية يا ضي عيني
في الديار آعد أنا وهية سويا
في الديار آعد لا حبدي[11] ولا أبدي
إن هاجر جابت ولد ما تقوم به عندي
خدها وارميها في جبل الصيراوندي
بين خلا وجبال ووحوش كاسرية
بين خلا وجبال الوحش يهشم في عضاها
يأكل الجتة ويشرب من دماها.

وهنا تكتمل معالم سارة — الإلهة الأم لقبيلة إبراهيم، والتي يقول عنها الله لإبراهيم في التوراة:

في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها.

وذلك حين «رأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح، فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها؛ لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق، فقبح الكلام جدًّا في عيني إبراهيم لسبب ابنه، فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك، في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها.»

حتى ولو كان القول المقدس هنا، هو إقدام سارة على حرمانه — إسماعيل — من إرثه، كأخ أكبر.

وبالطبع فإن نصنا العربي الإسلامي لا يولي اهتمامًا يذكر لجوهر الصراع في هذا النص بين الضرتين، العبرية سارة، والعربية هاجر، ألا وهو حق الأخ الأكبر في إرث وميراث أبيه إبراهيم، والذي هو الهدف الأول والأخير للعالم القديم.[12]

ومرَّة أخرى أكد ملاك[13] الرب سلطة سارة لهاجر ذاتها في النص اليهودي، حين التقى بها بعد أنْ «أذلتها سارة، فهربت من وجهها»، وسألها ملاك الرب «يا هاجر جارية

---

[11] أي لنْ أبدي رأيًا.

[12] أي حيازة الملكية وتوريثها.

[13] الملاك: الرسول جبرائيل في نصها هذا العربي الأساسي «الفولكلور».

سارة، من أين أتيت وإلى أين تذهبين؟ فقالت: أنا هاربة من وجه مولاتي سارة، فقال لها ملاك الرب: ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها.»

بل والملفت أنْ يؤكد هذا النص الشفهي العربي بدوره، تضخيم «سارة» وإعطاءها كل السلطة في وجه إبراهيم، كما يعكس تواكل إبراهيم، واستسلام هاجر الكامل كجارية مضطهدة لكلا الزوجة الأولى والزوج، في متوالية سلطوية مداها الأخير قتل الابن البكري، وإرساء شعائر التسلط الأبوي البطرقي.

فبعد أنْ أتمت هاجر «أشهرها والليالي، أو أشهر الحمل» وولدت إسماعيل، قامت سارة بواجبها أو اتفاقها — أي إنها أولدت هاجر — واستقبلت المولود «وقطعت السرة وبعدين قمطاته»، ثم كحلته، وعلى الفور ألقت به — ربما عندما تبينت أنه ذكر — في وجه أمه، وكان أنْ طردتهما هو وأمه.

فالتزام سارة بشعائر المولود الجديد إسماعيل، من تقميط وقطع السرة وتكحيل، يشير إلى أنها تمارس بالفعل شعائر تطهرية على الطفل حديث الولادة، والتي عادة ما تستخدم الماء، أو النار، أو الكحل، بهدف تخليص المولود من النجاسة أو الدناسة — كما يسميها تيلور — كشعائر تطهير كالوضوء عند المسلمين، والتعميد بالماء عند المسيحيين.

فإسماعيل هنا هو الطفل الذي دارت المنازعات من حول مولده، وهو وإنْ لم يُنتزع من أمه، مارًّا بمرحلة قتل الأم، وهي المرحلة التي يجتازها — عادة — الأطفال القدريون، إذ إنَّ الأم هنا تمر بنفس الظروف، وهو الاضطهاد والتغريب والتعرض للقتل «بين خلا وجبال، الوحش يهشم في عضاها، يأكل الجثة ويشرب من دماها»، إلا أن كليهما — الأم وطفلها — يمران بمرحلة الطرد والانتزاع من القبيلة.

والقبيلة هنا هي قبيلة سارة، يؤكد هذا في نصنا الشفهي نزول الوحي أو الملاك جبريل هابطًا من السماء مبلغًا إبراهيم أنَّ هذا هو أمر الرب:

ربك يقرئك السلام ويقول لك: اركب يا خليلي.
اركب وسافر على الدرب الطويل.

وفي هذا يتطابق هذا النص الشفهي مع النص الذي أتت به التوراة (تكوين: ٢٠) حين قال الله لإبراهيم:

في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها.

ومن هنا يحفظ كلا النصين لسارة، توحدها بالإله أو الإلهة الأنثى.[١٤]

فبعد أنْ ينفذ إبراهيم ما أمر به — سواء ما أمرته به سارة وما أكده الوحي «جبريل» — فيتركهما[١٥] في العراء عائدًا إلى قبيلته: «أنا مسافر وفايتكم يتامى، اجتماعنا بيكون يوم القيامة.»

ويستمر النص مصورًا معاناة هاجر وابنها إسماعيل: «ما حداها زاد ولا شربة موية» (ماء).

حتى إنه عندما يشتد عليها «العطش والجوع» فيحرق كبدها، ألقت بطفلها إسماعيل على الأرض «ارمتو[١٦] على الأرض وسافرت متدارية.»

فيحفظ هذا النص الشفهي الفولكلوري لهاجر، أنها خلال معاناتها بحثًا في صهد الصحراء الموحش عن الزاد والماء، أنها ألقت بإسماعيل على الأرض وسافرت متدارية، كما لو كانت لتفلت بجلدها من براثن العطش قبل الجوع، وفضيحة — أو كبيرة — تخليها عن ضناها.

وهو ما يختلف إلى حدٍّ مع النص العبري الذي يبرر إلقاء هاجر لإسماعيل (أبو العرب) طفلها؛ حتى لا تشهد معاناة موته، كما أنه يختلف كثيرًا في أنَّ المنفى — أو الوادي غير ذي زرع — لإسماعيل وأمه كان برية بئر سبع أو بير شبا في فلسطين، بدلًا من برية فاران أو وادي مكة، وفي أن إبراهيم زارهما بالماء والخبز في اليوم التالي:

> فبكر إبراهيم صباحًا وأخذ خبزًا وقربة ماء، وأعطاها لهاجر واضعًا إياهما على كتفهما والولد وصرفها، فمضت وتاهت في برية بئر سبع، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، ومضت وجلست مقابله بعيدًا نحو رمية قوس؛ لأنها قالت: لا أنظر موت الولد، فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت، فسمع الله صوت الغلام، ونادى ملاك الله هاجر من السماء، وقال لها: مالك يا هاجر! لا تخافي؛ لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملي

[١٤] الإلهة الأنثى The White godess.

[١٥] وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام (تكوين: ٢١)، فحملها جبريل إلى مكة، (مروج الذهب السعودي، ص٤٤).

[١٦] ومضت وجلست مقابله بعد نحو رمية قوس؛ لأنها قالت: لا أنظر موت الغلام، (سفر التكوين، إصحاح ٢١).

الغلام وشدي يدك به؛ لأني سأجعله أمة عظيمة، وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام، وكان الله مع الغلام فكبر، وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس (تكوين: ٢١).

وعلى هذا فالنص الذي نقدمه — الفولكلوري العربي — أكثر قسوة وخشونة، من حيث إلقاء الأم هاجر بطفلها إسماعيل بإزاء العطش[١٧] والإنفاق، وأنْ تسافر خلسة أو متدارية.

إلى أنْ يجيء المنقذ لإسماعيل — الطفل — من وفد المسافرين، الذين راعهم تفجر الماء له كطفل قدري أو مقدس.

وتنسب قبائل جرهم، وهم من العرب البائدة أو العاربة أو المندثرة، وكانوا قبيلة ضمن اثنتي عشرة قبيلة حضارة، منهم عاد وثمود وعرفات العماليق وجرهم، أنهم هم بذاتهم وفد المسافرين هذا، الذين تربى إسماعيل وسطهم وكبر إلى أنْ أصبح أمَّة، بل وتزوج إسماعيل منهم — أي جرهم — بزوجته الثانية التي راقت في عيني أبيه إبراهيم، فباركها وطالبه تيمنًا بصياغة عتبة داره من الفضة النقية.

ومن رحم هذه الزوجة — الثانية — الجرهمية، أنجب إسماعيل ابنه «قيدار»، أبو العرب العدنانيين.

فما إنْ تحدث المعجزة[١٨] ويضرب إسماعيل بكعبه على الأرض حتى نبعت زمزم و«صارت في كل وادي»، فتفجر الماء من بئر زمزم، وبذا أصبح إسماعيل قبيلة كبيرة، و«البيوت انتصبت ألف وعشرومية.»

وعندما كبر إسماعيل وتزوج «بصبية» أو زوجته الأولى، التي تَنْسِبُ لها المصادر العبرية أنها كانت وثنية مصرية، كما يلتقي معه النص الفولكلوري العربي، أي في إدانتها.

[١٧] تمشيًا مع مثلنا العامي: «إنْ جاء الطوفان، ضع ابنك تحت رجليك.»

[١٨] يقول اليعقوبي: إنَّ هاجر بعد أنْ صعدت الصفا، رأت بقربه طائرًا يضرب الأرض برجله «وكانت بئر زمزم» (تاريخ اليعقوبي، ج١، ص١٢)، ومن هنا تجيء مناسك إعادة تمثل معاناة الأم هاجر، خلال معاناتها بصعود جريًا ومَلْعًا، تلي الصفا والمروة خلال مواسم الحج.

وحين يشتد حنين إبراهيم لرؤية ابنه إسماعيل، وتتحسس سارة أحزانه، وتسأله: «يا خليل الله، مال النوح زايد؟» فيخبرها بشوقه الجارف لرؤية ابنه، تصرح له بالزيارة إلا أنها تستحلفه وتعاهده، على ألَّا ينزل عن مطيته لهاجر:

سارة:

احلف يامين من الذنب غافر
إنك ما تنزل ولا تروح يم هاجر.

ولما كان إسماعيل قد تزوج بـ «صبية» لم تحسن معاملة والده في غيابه، وهو القادم المسافر له من بلاد القدس إلى برية فاران أو مكة، وقد تكون أنكرته حين سألها:

صاحب البيت فين يكوني؟
قالتلو غايب برا يا عيوني.

والنص هنا يكشف عن مستوى الحوار العالي بين إبراهيم وزوجة ابنه، مصورًا شخصيتها كما لو كانت «دلوعة» أو مائعة حين سألها إبراهيم:

وأنت يا بنت إيه تكوني؟
قالتلو: أنا مرته وبتسمى الهنية
قالتلو: أنا مرته وبتسمى العفوفة
فقال لها: محدش يا بنت يكرم ضيوفو[١٩]
من بلاد القدس أنا جي حاشوفو.

ولما واصلت هي إنكارها للضيف، مدعية سفر إسماعيل «ومعاه صرة أو صرية في مرة، وفي الثانية أنه سافر ومعه جماعة»، فقال لها: «خدي الكلام مني وداعة»، مواربًا بين الزوجة والعتبة «قوليلو غير العتبة يا صاحب العطايا.»

وتوحي الزوجة بعتبة أو مدخل الدار، ذلك الكلام الملغز السحري لإبراهيم، فمثل هذا الكلام الشعري المغطى أو المستتر، المشابه لما يعرف بالفرش والغطاء، أو الرد، أو المرد في

[١٩] أليس هناك أحد يكرم ضيوفه.

الشعر الفولكلوري العربي بعامَّة، وأخصه الملحمي كسمة فولكلورية من أخص سمات التراث العربي، من فولكلوري وتقليدي.

يرد بكثرة في سير وملاحم: سيف بن ذي يزن عبر بحثه عن كتاب النيل، أو منابعه، والسيرة النضالية الفلسطينية المنشأ، والتي تؤرخ لهجرات وفتوحات، وحروب القبائل الفينيقية الفلسطينية العربية المعروفة ببني كلاب، وكالب وكليب، سكان الثغور في سيرتهم المعروفة «الأميرة ذات الهمة» عبر المخاطر السياسية لأحد أبطالها «السيد البطال».

كما أنَّ مثل هذه الأشعار أو المأثورات الملغزة، وردت بكثرة في السيرة العربية الفلسطينية المنشأة أيضًا، الزير سالم أبو ليلى المهلهل، وذلك عقب انتهاء حرب البسوس، وانعزال بطلها الزير سالم وتغربه عجوزًا مهدمًا إلى صعيد مصر، وتحسسه لإقدام عبديه المرافقين على اغتياله، فكان أن حمَّلهما وصيَّته إلى قومه عقب موته، وهي لا تعدو بيتًا وحيدًا، أو غير مغطى من الشِّعر، كشف به لقومه عن اغتيال خادميه له في غربته بصعيد مصر:

مَن مُبلِغُ الأقوام أنَّ مهلهلا لـلـه درُّكمـا ودرُّ أبـيـكمـا

فما إنْ اغتاله عبداه قائلين: «نذيقك ما أذقت العرب»، وعادا إلى قومه بخبر موته، فأنشدا وصيته أو بيت شعره المقفل أو غير المغطى، حتى تعرفت قبيلته حقيقة أنَّ العبدين قتلا المهلهل أو الزير سالم، بعد أنْ أشارت عليهما اليمامة بلغز أو جذر أو فزورة عمها الزير سالم المغتال، وأكملت وصيته الشعرية:

من مُبلـغ الأقوام أن مـهـلـهـلًا أضحى قتيلًا في الفلاة مجندَلا
لـلــه درُّكـمـا ودرُّ أبـيـكـمـا لا يبرح العبدان حتى يُقتلا

فمثل هذه الأشعار الملغزة — غير قاصرة على تراثنا — إنْ لم تكن خَصِيصَة مصاحبة للبالاد وارتحالاتها، والزيادات الشعرية الملغزة أو المطلسمة التي تدفع بنموها — والأمثلة كثيرة — في كلا تراثنا العربي والعالمي على السواء.

فما إنْ نقلت زوجة إسماعيل مقولة أبيه الشعرية: «غيِّر العتبة»، دون فهم، حتى فهم إسماعيل مغزى وفحوى كلام أبيه.

وكان أن طلقها إسماعيل حين نقلت له الوداعة،[٢٠] وهو ما طلب منها الأب السلف إيداعه للابن، فقال لها إسماعيل: «روحي انتي حرمتي عليَّه.»

حتى إذا ما انقضت سنة على موعد هذه الزيارة، وكان إسماعيل قد تزوج «بنت شيخ كل القبائل»،[٢١] وعاد الحنين فغلب الأب الشيخ لزيارة ابنه، حين رآه في الحلم وبكاه، ونفس ما حدث في المرة الأولى على عادة التكرار المصاحب لهذا اللون الأدبي وهو البالاد عمومًا، أحست سارة أحزانه، فأخبرها بما رآه في المنام، وحنينه لزيارة ابنه، ومن جديد تستحلفه سارة بألَّا ينزل عن مطيته،[٢٢] ولا يقرب هاجر.

حتى إذا ما قصد بيت إسماعيل ونادى قائلًا: «يا هاجر»، فخرجت له الزوجة الثانية ورحبت بمقدمه، ودعته إلى الترجل عن مطيته والنزول عندهم، ويبدو أنها كانت راقت في عينيه فداعبها، ونسبها إلى هاجر قائلًا لها: «ما فيش أجازة يا بنت هاجر!» فأحضرت له «اللبن الحليب ويَّا المزازة!»، وظلت أمامه وهو على مطيته يأكل من يدها «شايلة الطعام وعلى إيدها المية»، وكان أن رضي عنها إبراهيم، وأبلغ ابنه رضاه عن طريقها قائلًا:

لما ييجي إسماعيل قوليلو يا بنتي
صيغ عتبة الدار من الفضة النقية.

ولقد استوقفني في هذا النص العلاقة التي ربط بها إبراهيم مرتين متتاليتين بين الزوجة والعتبة، ففي المرَّة الأولى طلب الأب الشيخ من ابنه، التخلي عن زوجته وتغييرها: «غير العتبة يا صاحب العطايا»، فكان أنْ فهم إسماعيل وبادر من فوره بأن طلق زوجته الأولى، التي يقال إنها مصرية اختارتها له أمه — المصرية أيضًا — هاجر.

---

[٢٠] الأمانة المودعة.

[٢١] التي يبدو أنها قبائل جرهم، كما يذكر الميثولوجي العربي سليلهم عبيد بن شريه الجرهمي.

[٢٢] حماره في النص العبري أيضًا، والذي يشير من جانب إلى أنه الخليل كان حميري، انتسابًا إلى حمير رأس دولة حمير القحطانية اليمنية، ومن جانب مقابل فإن الحمار كان وسيلة المواصلات المتاحة، فيما قبل المعرفة بالحصان الذي أدخل إلى منطقتنا الشرق الأوسط أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، كحيوان أمريكي الأصل.

وفي هذا يقول نص التوراة:

وسكن في برية فاران،[٢٣] وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر.

ومع احتفاء إبراهيم بالزوجة الثانية، عاد مرَّة أخرى فوحد بينها وبين العتبة: «صيغ عتبة الدار من الفضة النقية.»

وتوحد الزوجة بالعتبة، تضمينة ملفتة في الحكايات المصرية؛ نظرًا لما صادفني من موتيفاتها وعناصرها في الحكايات الطقوسية، التي تدور حول فكرة البغي الموعودة، التي تقوم من تربتها لتفي وعدها، بمعنى أنه ليس هناك منفذ أو مهرب من الوعد والمكتوب والقدر، حتى لو مات الموعود ودفن تحت التراب، تقول هذه الحدوتة: «إنَّ سيدة طيبة متجوزة رجل طيب، وعايشين مع بعض في الستر، وزارها الوعد، أو إنهم — أي الموعودات — نوهوها فأخذت صيغتها، (فضتها وذهبها)، ودفنتهم تحت عتبة باب بيتها وخرجت من فورها، فسارت معهم ونزلت الوعد، حتى خلصت ما عليها ووفته، ورجعت لبيتها وزوجها قائلة: أنا مراتك فلانة، جوزها بصلها وقاللها: دي ماتت. قالتلو: لا، أنا مراتك، حتى بالأمارة صيغتي مدفونة تحت عتبة الباب، وحفرت باحثة تحت عتبة الباب وأخرجتها، وجوزها صدق، وعرف أنها زوجته.»

كما أنَّ توحد الزوجة بالعتبة وُجد في إحدى الحكايات التاريخية اليونانية، عن ملك يُدعى «بريانر» ملك كورنثة، توفيت زوجته «ميلسيا» وكانت تعرف مكان بعض الكنوز، وعندما تمكن الملك من استحضار شبحها ليدله على مكان الكنوز المخبوءة، وذلك عن طريق تجميعه لكل نساء المدينة، ونزع ملابسهنَّ عن أجسادهنَّ وحرقها فوق قبر الزوجة، التي ما إنْ سرى الدفء في جسدها حتى قامت من تربتها، وكشفت عن مكان الكنوز المخبوءة تحت إحدى عتبات القصر.

فتوحد الزوجة بالعتبة يشير إلى السعد والرزق، وتصاحب الشعائر — المتصلة بالسعد والرزق هذه — المولودَ الجديد وتخطيه للعتبة. ويرى «تيلور» أنَّ الأدعية والهمهمات المصاحبة للعتبات «مثل يا ساتر ويا أهل البيت»، إلى أنها بقايا صلوات قديمة مندثرة.

[٢٣] أي برية أو وادي مكة، مكة فيما قبل تفجُّر ماء بئر زمزم بها، فسميت مكة؛ انتسابًا إلى أحد أسماء الآلهة والتقويم القمريين «المقة»، التي تواتر اسمها إلى مكة.

وعرف عن «الحمس» أو بنو أحمس، الذين طردوا الهكسوس من مصر، وأصحاب القباب الحمر من الأقدم، أو الأدم — نسبة إلى أرض أدوم — تقديسهم لعتبات البيوت، والعديد من الشعائر المتصلة بمداخل البيوت وتحريمها، بل وإتيانها من الخلف، والربط بينها — أي العتبات — وبين المجيء والغياب، أو الميلاد والموت، وتشبيه الدنيا أو العالم بأنها كبيتٍ ببابين، ما إنْ يدخل المرء من عتبته حتى يخرج مشيَّعًا من الأخرى.

ومرَّة أخرى عاد إبراهيم، فنسب إسماعيل إلى أمه هاجر «صيغ عتبة الدار يا ابن هاجر.»

حتى إذا ما جاء إسماعيل وحكت له زوجته الثانية عمَّا تمَّ بينها وبين أبيه، ربما دون أنْ تتعرف أنه حماها والد إسماعيل، فقال لها إسماعيل: «زدتني غلاوة يا صبية، يا ضي عيني، ما فيكيش تفريط حتى تدفنيني.»

ويلاحظ أنَّ الهدف الأسمى هو إرضاء الأب عن زوجة ابنه، مع توالي أو تصاعد دور التسلط النمطي التربوي الأبوي القبائلي، الذي يصل ذروته آخر النص بالتضحية بذبح الابن البكري إسماعيل فاتح الرحم.

سارة وهاجر بين التراثين العربي والعبري

أريد أنْ تجيء محاولة بحث ودراسة هذا النص الفولكلوري — سارة وهاجر — من حيث مداخله الفولكلورية البحتة؛ أي بالنظر إليه كعلم مستقيم أو مستكفٍ بذاته، وليس مجرد اتخاذه مطية أو كعامل مساعد لدراسة المنتجات الشعائرية والروحية التقليدية، أو حتى الأساطير، أو أي موضوع آخر خارج حقله — أي الفولكلور — كما يقول آنتي آرني. فهذا هو هدفي هنا في محاولة دراسة هذا النص الشفاهي الشعري الغنائي سارة وهاجر، بالإشارة طبعًا والقياس إلى مصادره[1] المدونة وهي كثيرة ومتعددة، منها: التوراة، والتوراة الفولكلورية أو الشفاهية؛ أي التلمودات التي ظلت مزدهرة كفولكلور عشرات القرون، إلى أنْ أقدم على تدوينها الحاخاميون اليهود، فانتهى بذلك عصر التلمود الفولكلوري الذهبي، والسبب في تدوين هذه الأساطير والمأثورات والحكايات والتعاليم الدينية، يرجع إلى تعسر حفظها والإلمام بها، فهي تكاد أنْ تكون في موقع تاريخ يومي للآلاف من السنين، التي عاشتها حضارات الشرق الأوسط المتعددة المتلاحمة.

وكما هو معروف ومتفق عليه، فليس التراث العبري حكرًا ووقفًا على اليهود دون غيرهم من شعوب وحضارات الشرق الأدنى القديم.

وعلى هذا، فإن العصب الفولكلوري العربي أو السامي موجود في معظمه متضمن للمدونات العبرية، وأخصها التلمودات المتعددة، فكما يقول اليهود التنائيم؛ أي المتعلمين

[1] أي الفولكلورية في المحل الأول، حتى وإنْ كانت التلمودات ومجمل التراث العبري الذي هو من أوسع أبوابه، تراث وفولكلور بلداننا العربية.

علماء المشنا، وهي الشرائع الشفهية، فإن تدوين التوراة الشفهية كان يتم في أيام الاضطهادات والاضطرابات، وإنها قبلت كسنَّة من النبي موسى في سيناء.

وتوجد نسختان مختلفتان من التلمود، التلمود الأورشليمي أو الفلسطيني — نسبة إلى أورشليم أو القدس — وقام بتدوينه في طبرية أحبار أورشليم الأمورايم؛ أي المفسرون في أواخر القرن الرابع الميلادي، ويحتوي على ٣٩ بحثًا، والتلمود البابلي الذي يقال إنَّ واضعه أو المشرف على عمليات جمع مادته الشفهية، هو رب آشي رئيس الأكاديميا في سورة بالقرب من بغداد، بمساعدة أحبار اليهود في بابل أواخر القرن الخامس الميلادي، وهو أوسع انتشارًا من التلمود الأورشليمي، وكتب حينما كان اليهود في بحبوحة من الأمان والراحة، والحرية التامة في بابل، وهو نحو أربعة أضعاف التلمود الأورشليمي، ويحتوي على ٣٦ موضوعًا باللغة الآرامية، وهي لغة البلاد وقتئذ، والتي عنها جاءت السريانية.

كما توجد مجموعة من الكتب الأخرى، وهي ما تعرف بالأسفار الخارجية الممنوعة، التي لا تدخل ضمن أبواب الكتاب المقدس، وتسمى أبوكريفا؛ أي غير قانونية وهي أربعة عشر سفرًا،[٢] نقلت إلى الترجمات اللاتينية نقلًا عن الترجمة السبعينية للأسفار الموسوية الخمسة، المعروفة بسفر التكوين، من العبرية إلى اليونانية القديمة في فاروس التي تعرف بجزيرة البيت المضيء، والتي أصبحت بعد ذلك مدينة الإسكندرية، وقام بالترجمة اثنان وسبعون دكتورًا عالمًا، خلال اثنين وسبعين يومًا كما يدعي اليهود، عبر خرافة رقمية، قصد منها الحفظ والتذكير، بمناسبات وتقويمات شعائرية.

وأنا مضطر هنا لتقديم هذه الإلمامة المبكرة، التي تعد أقدم وثائق ومدونات لهذه التركة من الملاحم والمدائح والأناشيد الدينية؛ نظرًا لاتصال هذه المصادر الأمورية اليهودية المدونة المبكرة بموضوعنا هنا عن سارة وهاجر، منها مثلًا ما تنسبه الأبوكريفا لإبراهيم الخليل، من أنه أول من جاء بالسهاري، أو العبادة المبكرة في الصباح، كما نسبت إليه ٦١٣ وصية قبل وصايا موسى العشر.

فالتلمود والمدراش هما الاسمان اللذان استعملا بدلًا من تعبير الحكمة «تنائيم» الأمورية، ومعناها التعاليم أو بدء التعاليم، ومنها جاءت ثلاثة أفرع المعرفة (مدراش،

[٢] وأشهر هذه الأسفار: يهوديت، وطوبيا، ويشوع بن سيراخ، وباروخ، وسفر المكابين، وأخنوخ، واليوبيل حكمة سليمان.

هالاكاه، هاجاداه)، ثم شروح وتفاسير هذه التعاليم فيما يعرف بالجمارا البابلية والأورشليمية، وهي الروايات والأحاديث والشفاهيات عن أئمة اليهود، وهي عندهم بمثابة دائرة معارف، بل هي كانت النواة الفعلية لدائرة المعارف اليهودية المغلقة المعروفة.

كما أنَّ منها كتابات السريان النساطرة، مثل شروح وإضافات الراهب «نرسي» المتوفى عام ٥٠٢م، والملقب بـ «لسان المشرق»، الذي وضع شروحًا على أسفار موسى الخمسة، كما يقول عبد يسوع صاحب فهرست وتاريخ النساطرة، كذلك كتابات منطوقة، منها ٣٦٠ قصيدة رتبها على أشهر العام — الاثني عشر بطريقًا — اثني عشر جزءًا، واستعمل في شعره وزن المقاطع الاثني عشر والسبعة والأربعة، وكان شعره غنائيًّا وقصصيًّا، أمَّا موضوعاته فدينية منها بالاد — مثل سارة وهاجر — عن يوسف الصديق نشر بعض أجزاء منها المستشرقون بدجان وجابوسكي وماكس فايل.

كما عثر على أسفار سريانية تتناول حياة الاثني عشر بطريقًا، أبناء يعقوب المسمى بإسرائيل، مترجمة إلى اليونانية القديمة نقلًا عن الآرامية، تكشف أصولها السامية البروفسير موسى جاستر، والسريانية د. سنيكر أستاذ الساميات بجامعة كمبردج عام ١٨٦٩م، وكان آخر هذه المصادر العبرية المبكرة التلمود الحجازي لكوهين.

إلى أنْ تجيء المصادر العربية الإسلامية التي أشارت إلى قصتنا هذه مثل: وهب بن منبه، والعامري، ومحمد بن إسحاق، والواقدي، وابن الكلبي، وابن المثنى، وسهل بن هارون، وعبد الله بن المقفع، واليزيدي، والعتبي، والأموي، والجيلاني، والبيومي، والطبري، والزمخشري، والأنصاري، وابن شميل، وعبد الله ابن عائشة، والجمحي، والجاحظ، والنميري، والمخزومي، والإنجيلي، والمسعودي، وابن العبري، وابن النديم، وابن ديصان، وابن الأثير وغيرهم.

وأغلب هذه المصادر العربية تلتقي عند أساسيات شبه موحدة، وهي تتحدث عن النبي إبراهيم الذي ورد في القرآن (سورة الأنعام آية ٧٤)، وأنه ابن آزر، وهو اسم مشتق فيما يظهر من اسم خادمه إليعازر، أمَّا أسماء آباء إبراهيم كما وردت في الكتاب المقدس[٣] فهي: تارح بن ناحور بن ساروع بن آرخو بن فالح بن عابر بن شالح بن قيتان بن أرفشخذ بن سام بن نوح.

[٣] الثعالبي، قصص الأنبياء، صفحة ٤٤، ابن الأثير، ج١، صفحة ٦٧، ويتفق مع ما جاء به (الإصحاح ١١ لسفر التكوين، الآية ١٠–٢٢)، و(سفر الأيام الأول الإصحاح الأول، الآية ١٢–٢٧).

وتصل الاجتهادات الخرافية في تناول شخصيته وتغطية مختلف مأثوراته، إلى حدود رقمية، من ذلك أنه ولد بعد الطوفان بـ ١٢٦٣ سنة، أو بعد خلق العالم بـ ٣٣٣٧ سنة.

فمثله مثل معظم الأبطال الأسطوريين والفولكلوريين، طفل موعود، وهم أولئك الذين يجيئون في أزمان لتحقيق رسالاتهم، ولكنهم يواجهون بالاضطهاد من جانب آبائهم، أو من جانب ملوك طغاة، وإبراهيم لهذا يصنف مع هؤلاء الأطفال الموعودين والمتنازع عليهم، مثل رومولس، وريموس، وسميراميس، وموسى، وأوديب، وأوريست، وكيروس عند الفرس المئات غيرهم، وهي فكرة شائعة في كافة أساطير وحكايات العالم، خاصَّة الفولكلور والأساطير المنتمية لشعوب البحر الأبيض المتوسط بطريقة مفرطة جدًّا، فما من حكاية شفاهية أو ملحمة، أو قصة شعرية إلَّا ويجد المرء نفسه وجهًا لوجه مع متنوعات هذه المأثورة أو الموتيف (الفكرة)، ففي مرات يضطهد الطفل وينتزع من أمه، وهي المرحلة التي تسمى بمرحلة قتل الأم، والتي يؤهل بعدها الطفل للانتقال الأبوي البطرقي.

وفي حالات يضطهد بسبب اللون، كما في حالة أبي زيد الهلالي سلامة، وعنترة بن شداد، وفي أخرى يكون مبرر النزاع، هو أنَّ الطفل الإلهي أو الموعود سيجيء على غير دين آبائه، كما في حالات إبراهيم وموسى وبوذا وعيسى.

وقد يكون من بين الأسباب التي يُلقى فيها بالطفل للموت «ووحوش الجبال»، هو التنبؤ له بأنه سيجلب الطاعون أو اللعنة أو الطوفان، كما في حالات أوديب بن لايوس، الذي أُلقي به بعيدًا عن وطنه ومنبته «ثيبس» وأنقذه الراعي، وأصبح أميرًا لمملكة أخرى هي «كورنثة»، وعندما عاد إلى ثيبس؛ هربًا من لعنة قتل أبيه لايوس، والتزوج بأمه على غير علم منه لاحقته النبوءة المسئومة.

وعند الفرس الطفل كيروس عبيد الملك استياجس ملك ميديا، الذي حلم بأن ابنته ستهب الحياة ابنًا يتسبب في مجيء الطوفان، الذي سيغرق آسيا عن آخرها، فانتزع الملك الطفل عند مولده ودفع به إلى الموت، وكما هي العادة أنقذه رجل بسيط، لكن في اللحظة المحتومة قتل جده استياجس.

وباختصار فهي فكرة أو تضمينة أسطورية شائعة جدًّا في كل فولكلور العالم المدون والشفاهي، وجدت أشكالًا لها في الحكايات الفلبينية «هانسل وجريتل، وجوان وموريا»،

وفي أيرلندا وشمال أوروبا وإسبانيا، ووجد في سيبيريا وحدها ٦٠ ألف نص روسي، و٥٤ ألف بولندي، و٢٥ ألف ألماني ... إلخ.

ومرجع تركيزي على هذه الفكرة أو الموتيف بالنسبة لهذا النص سارة وهاجر؛ فذلك لتداخلها في حياة ثلاثة من شخوصها؛ الأول إبراهيم الذي اضطهد من الملك النمرود ملك بابل، وابنه إسماعيل الذي اضطهد من سارة زوجة أبيه، وابنة عمه، وأخته في الرضاعة، ثم هاجر جارية سارة وضرتها، والتي اضطهدت بدورها من جانبها بسبب خلفها لإسماعيل، الذي سيقدر له أنْ يصبح أمَّة، وأبا للعرب الشماليين العدنانيين في السعودية اليوم.

ففيما يتصل بإبراهيم اضطرت أمه عوشاء[4] أنْ تلجأ إلى كهف بالقرب من كوثان، وهناك رأى إبراهيم نور الحياة للمرَّة الأولى، ويقال في هذا: إنَّ الأحلام المزعجة التي رأى فيها الملك النمرود أنَّ طفلًا سيولد ويتسبب في تحطيم ملكه، دفعته إلى مراقبة النساء الحوامل وقتل ذكورهن، وزار عماله وجواسيسه أم إبراهيم للكشف عليها، قبل أنْ يأتيها المخاض، وعندما جسوا جانبها الأيسر اختفى الجنين في الجانب الأيمن، فانصرفوا دون أنْ يظفروا بطائل.

ولقد وردت هذه القصة في سفر هياشار[5] فصل نوح، وفيها أمر تارح بذبح ولده إبراهيم، لكن حلَّ محله ابن خادمته، ونجد أصولها في المصادر الإسلامية، وكذلك الحكايات الشفاهية التي ما تزال شائعة في فولكلور الشرق الأدنى، والتي حرص عليها ودونها حتى الحفريون الذين عملوا في الكشف عن الحفريات السومرية والأكادية والبابلية، مثل الكشف عن مكتبة آشور بانبيال، والتي كانت تحوي ٤٣ ألف لوح مدون من الآجُرِّ، ومن هؤلاء الحفريين الذين دونوا ما سمعوه من حكايات شفهية فولكلورية، عن صراع إبراهيم مع الملك النمرود «كولدوي، لايارد، رولنسون».

وهي تلك الحكايات التي تنفرد بها المصادر العربية المختلفة، والتي أخذت مكانها متأخرًا في الآداب العبرية، نقلًا عن العربية، كما يعترف اليهود أنفسهم، والتي ما تزال

---

[4] الثعالبي، قصص الأنبياء: الطبري، ج١، صفحة ٢٥٦، الزمخشري، ج١، صفحة ١٧٢، البيضاوي، ج١، صفحة ١٣٣، ابن الأثير، ج١، صفحة ٩٦، ياقوت فرما البكري، صفحة ٤٨٥، المقدس ٨٦ بابًا ثرا، صفحة ٩١، ابن ميمون دلالة الحائرين، الفصل ٢٩.

[5] دائرة المعارف الإسلامية، ج١، صفحة ٢٥، الكسائي صفحة ١١٥–١٢٠.

تواصل طوافها وهجراتها على طول الشرق الأدنى بطريقة تحيل دراستها إلى عناء ما بعده عناء، فبعض هذه «الموتيفات» والأفكار المتصلة بطفولة إبراهيم ترد متناقضة ومتضاربة، مثل:

وكيف أنَّ أباه آزر أو تارح كان وزيرًا للملك النمرود في كوشان، وحلْم الملك النمرود بمجيء طفل ليحطم ملكه ويقتله، ثم تربيته في كهف يلعق أحد أصابعه فيجري عسلًا، ويلعق الآخر فيجري باللبن، ويلعق الثالث فيجري الماء، ثم بحثه عن الله بين أجرام السماء، وبيعه الأصنام مناديًا: «يا مين يشتري اللي لا ينفع ولا يضر»، وتحطيم الأصنام وإلقائه في النار، ثم كيف خمدت النار في سائر بقاع الأرض في ذلك اليوم — كما يقول المسعودي — وكذلك بناء النمرود للقلعة ذات الاثني عشر برجًا ليصل إلى الله، ومنها محاربة إبراهيم لأربعة ملوك وثأريته من الملك النمرود، عندما دخلت البعوضة في أنفه وثقبت مخه، وبنائه الكعبة، ومجيئه وزوجته سارة إلى مصر، وما حدث بين سارة وفرعون، ثم كيف أن إبراهيم كان يحرسه ٤٠٠ كلب حين تتحرك مركبته، وارتباطه بموارد وآبار الماء، ومنها خروجه من أور الكلدانيين إلى بلاد الأنهار، ما بين النهرين بين قادش وآشور.

ويؤرخ البعض لهذه الهجرة بانتهاء الألف الثالث قبل الميلاد، حين نزوله حيران، ويقال إنه استولى على دمشق وأصبح ملكها، ثم توغل في وادي الأردن ونزل نابلس — أوشكيم — بأرض كنعان الفلسطينية، حيث استوطنها الفلسطينيون قبله بحوالي ثلثمائة عام، ثم انتقل إلى بيت إيل وعاي، ثم عبرون، إلى أنْ حلَّ القحط بفلسطين فهاجر إلى مصر، وعندما خرج ورأى ملوك كلدة أسروا ابن أخيه لوطًا، حاربهم وخلصه واسترد ما أخذ من ماشيته.

والغريب أنَّ كل هذه الأحداث سبقت ولادة إسماعيل وبناء الكعبة، وكذلك إذعان الماء لمشيئته حين حفر بئر سبع، وعندما آذاه أهلها فهجرها إلى فلسطين ونزل بين الرملة وإيليا، فنضب ماء بئر سبع، وعندما أدركوه نادمين أعطاهم سبع عنزات من غنمه، وقال: «اذهبوا بها معكم، فإنكم لو أوردتموها البئر قد ظهر الماء حتى يكون معينًا طاهرًا كما كان.»

وبإيجاز شديد، فإن كل هذه الأحداث والأفكار والحكايات والمآثر، ما تزال تواصل اتصالاتها وتبادلاتها الشفهية والمدونة، خاصَّةً في الحكايات الشعبية الشفهية لبلداننا

العربية، وأخصها الوطن والأرض الفلسطينية، حيث ما تزال تزدهر مأثورات الخليل الشفهية متواترة على الشفاه في فلسطين والأردن والشام بعامَّة.

بالإضافة إلى ما يزخر به مسرح أحداث هذه «البالاد» من مأثورات هاجرية وإسماعيلية، في مكة والحجاز، ويثرب التي سميت باسم أحد ملوك العماليق الفلسطينيين،[٦] وعرفت فيما بعد بالمدينة المنورة.

[٦] للاستزادة، انظر: موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، دار العودة، شوقي عبد الحكيم.

الجارية المضطهدة والزوجة المختطفة

وتُصنَّف هاجر في مصنفات وقواميس الفولكلور تحت ما يُعرف بـ «الجارية المضطهدة المتنازع عليها»، ووُجدت متنوعاتها في أساطير وفولكلور كشمير والبنغال، وعند الغالبية العظمى من حكايات الشعوب الأوروبية والهند، ويوجد ست متنوعات لها في الفولكلور الإفريقي وأميركا الشمالية والجنوبية في شيلي والبرازيل.

والتنازع حول الزوجة أو الجارية المضطهدة، تضمينة أو عبارة أو موتيف، شائع في الفولكلور العربي، ولقد جمعت لها حوالي أربعة أنماط شائعة في الحكايات الشفهية المصرية إلى جانب شكل رابع في ملحمة «سعد اليتيم»، التي يجري نشرها، ضمن هذه السلسلة عن ملاحمنا العربية، تحت اسم الملك فاضل، أو هاملت عربي.

وغالبًا ما يكون السبب الذي تعذب من أجله الزوجة أو الجارية في بعض المأثورات والحكايات، يرجع إلى بيئتها العنصرية كزوجة بدوية، بينما «ضرتها»[1] عربية، أو قد تكون «فلاحة قروية» في مواجهة مدنية بندرية في هذه الحالة ترجح كفة ضرتها الحضرية، كما قد يرجع السبب في اضطهاد الزوجة إلى إنجابها لولد واحد شاطر، أو مكشوف عنه الحجاب أو موعود، بينما قد تنجب ضرتها أو غريمتها الأخرى ثلاثة أو خمسة، وأحيانًا أحد عشر، بما يطابقها تمامًا، ويحدد مصدرها الأصلي، وهو قصة يوسف بن يعقوب بن راحيل، وصراعه مع إخوته الأحد عشر، أبناء «ليئة» الأخت الكبرى لراحيل أو راشيل أم النبي يوسف، والتي من اسمها تسمت إسرائيل، وذلك عقب زواجها من يعقوب.

[1] الضرة: بمعنى الزوجة الأخرى.

كما قد يكون لون جلد البشرة ودلالته الطبقية، سببًا لاضطهاد الزوجة وابنها، كما في سير وملاحم الهلالية وعنترة، حيث إن كلًّا من أبي زيد الهلالي وعنترة وُلد على غير لون بشرة آبائه أسود اللون، وطُردت أمه من قبيلتها، وعُذبت لهذا السبب إلى أن يحقق البطل الملحمي الشعبي انتصاره الاجتماعي الطبقي.

وكذلك فقد يرجع السبب إلى «الشكل»، أي القبح والجمال، فبينما كانت زوجتا يعقوب الشقيقتان ابنتي خاله «لابان[٢] بن ناحور بن تارح»، كبراهما وهي «ليئة» دميمة، «وكانت عينا ليئة ضعيفتين، وأما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة النظر، وأحب يعقوب راحيل»، إلى أن يكتشف أنها عاقر «ورأى الرب أن ليئة مكروهة ففتح رحمها، وأما راحيل فكانت عاقرًا»، ويضني راحيل أو راشيل ذلك العقر، لدرجة أنها كانت تصرخ في وجه يعقوب: «هب لي بنين، وإلا فأنا أموت.»

وكما هي العادة، تكون الغلبة في النهاية للجارية أو الزوجة المعذبة، وهو نفس ما حدث مع راشيل، التي سميت القبائل اليهودية باسمها بعد ذلك إسرائيل أي رجال راشيل.

وتكاد تجمع المصادر المختلفة، على أن هاجر أميرة أو جارية مصرية، أهداها فرعون مصر لإبراهيم، مع جملة ما أهداه من هدايا، عقب حكايته المعروفة مع سارة، حين[٣] دخل إبراهيم مصر ووُشي بحسن سارة امرأته إلى فرعون، فسأل إبراهيم عنها، فقال: هي أختي من أبي لا من أمي، ولم يكذب قوله، فاختارها فرعون إلى نفسه مختليًا، حتى تحقق أنها زوجته، فردها إليه مع هدايا كثيرة، من جملتها هاجر المصرية جارية «سارة».

ويذهب بعض الأنثروبولوجيين وعلماء الفولكلور أمثال «روبرت جريفز»، و«روفائيل باتاي» نتيجة لارتباط رقمي أسطوري حادث بين كل من التقويمين والأرقام الأسطورية أو المقدسة المصرية القديمة، ونظيرتها عند اليهود، وبالتحديد رقم ٧٢، والرقم ٥، فهناك خمسة أيام[٤] منتزعين من السنة المصرية القديمة، حسب التقويم السنوي الفرعوني

---

[٢] وكما يتضح من اسمه، فهو فلسطيني.

[٣] تاريخ مختصر الدول، لابن العبري، ص٢٢.

[٤] الأيام الخمسة المقدسة، التي تكتمل بها السنة المصرية، ذكرها أيضًا ديودور الصقلي، وبلوتارخ كما يرى فريزر.

الساري استعماله شعبيًّا، يعتقد المصريون أنهم الأيام الخمسة التي فاز بهم الإله تحوت أو هرمس، حين لاعب الإلهة القمرية «إيزيس» الدمنو أو السيجة، كما أن نفس الرقم خمسة، صاحب الآلهة المصرية الخمسة: أوزيريس، حورس، ست، إيزيس، نفتيس. ولما كانت السنة القمرية السابقة على هذا التغيير الذي طرأ مؤخرًا على التقويم المصري الفرعوني الساري استعماله شعبيًّا، تتكون من ٣٦٤ يومًا، فلا بد أن هذا التغيير التقويمي الذي أصبحت السنة بمقتضاه ٣٦٠ يومًا، تقبل القسمة على الرقم خمسة، بحيث تصبح كل فترة ٧٢ يومًا، ما يشير ويحفظ لعلاقات أكثر ارتباطًا، وأقرب تقويميًّا من التوحد كما يزعم البعض.

وهناك تفسير آخر لتوضيح مغزى هذه الأيام الخمسة النسيئة المنتزعين من التقويم المصري القديم، ذكره «بلو تارخ» في أسطورة إيزيس وأوزيريس، التي يعتبرها البعض تحولًا من نظام القبائل الطوطمية إلى الاستقرار، أو تحولًا من التفرق إلى التركيز وجمع الشمل.

فيقال إنه «وبعد أن لعن رع كبير الآلهة الإلهة الأنثى «توت» إلهة السماء، أصدر حكمه بأن تظل عاقرًا طيلة أيام السنة، وهزت الشفقة عاطفة تحوت نحوها، فخلق لها أيام النسيء الخمسة، فوضعت فيها أولادها الخمسة: أوزير، حورو، ست، أيزه، نبت حت. وعند ولادة أوزير صاح صوت في معبد طيبة أن ملكًا طيبًا صالحًا قد ولد.»

ثم ما صاحب ولادة «أوزيريس» من تآمر أخيه ست عليه «مع آخرين» إلى أن يجيء ذكر الرقم ٧٢، وذلك حين صنع الإله طويل الأذنين، الذي لم يتوصل تمامًا على نوعه كلب سلوقي أو خنزير بري أو حمار ست، إله مصر السفلي، صندوقًا بحجم قامة أوزيريس، حين خدعه وأغلقه عليه، بمعاونة الأنصار — أو الآخرين — وعددهم ٧٢.

بل إن نفس هذا الرقم ٧٢ مرتبط بالأساطير المصرية، فبالنسبة للأساطير المصرية، يقال إن الإلهة القمرية إيزيس، خبأت طفلها المقدس حورس أو حريو خراد، لمدة ٧٢ يومًا في أحراش الدلتا، خوفًا عليه من غضبة إله الشمس «الحمار طويل الأذنين» ست.

فالرقمان: ٥ و٧٢ وما لهما من دلالة دينية، وبالتحديد في بداية الألف الثانية قبل الميلاد، أي بعد دخول الهكسوس مصر عام ١٧٨٠ق.م، ومن المعتقد أن الإسكندرية القديمة أو «فاروس» كانت مركزًا لهذا النظام التقويمي للفصول الخمسة، التي تتكون كل فترة منهم من ٧٢ يومًا مضروبة × ٥ = ٣٦٠ يومًا، ويقال إن هذه الجزيرة التي أصبحت مدينة الإسكندرية فيما بعد، كانت تتبع هذا التقويم حتى بداية العصر القبطي،

وإن هذين الرقمين ٥ و٧٢ كانا أرقامًا مقدسة؛ لذا تعود يهود الإسكندرية زيارة هذه الجزيرة للاشتراك في أعياد «الأيام» السنوية، وربما كان هذا تفسيرًا كافيًا للإقدام على أول ترجمة في العالم للأسفار الموسوية الخمسة، من العبرية إلى اليونانية القديمة، وقام بإنجاز هذه الترجمة ٧٢ دكتورًا عالمًا، خلال اثنين وسبعين يومًا، وتمت هذه الأسطورة كأول تعريف للعالم القديم بالتوراة في الإسكندرية القديمة.

ويقال إن هؤلاء الاثنين وسبعين عالمًا كانوا يتناوبون عملهم وبنفس العدد ٧٢ لمدة اثنين وسبعين يومًا متصلة مضبوطة.

واستنادًا إلى أحد قوانين الأنثروبولوجي، التي تقول بأن «جميع الأعياد المتماثلة في العالم القديم، تتذكر وتحتفظ بمعاملات وعلاقات قبلية لها نفس التماثل أو التطابق.»

لذا فمن المعتقد أن هذا التشابه التقويمي يكشف عن نظيره بالنسبة للمعاملات والعلاقات بين اليهود الذين كانوا يشاركون في احتفالات الأيام الخمسة المصرية التي كانت تجري سنويًّا في جزيرة فاروس هذه.

ويرى أولئك القائلون بهذا الرأي أن الفرعون الذي تزوج «سارة» الإلهة الأم لقبيلة إبراهيم، والتي زارت مصر مع بداية الألف الميلادي الثاني، لم يكن سوى ملك فاروس المقدس، والحكم هنا يبدو مستندًا إلى الأسطورة الهرمرية عن ذلك «الملك بروتس» الذي كان من أوائل من استوطنوا الدلتا، متخذًا «فاروس» جزيرة البيت المضيء عاصمة له، والتي عرفت بعد ذلك بأكثر من ألف عام وأصبحت الإسكندرية.

ولقد أورد هردوت هذه الواقعة، نقلًا عن الأسطورة الهومرية التي تقول بأن «هيلينا» كانت تقيم عند ذلك الملك بروتس، والذي يحدد هردوت منبته قائلًا: إنه رجل من ممفيس يُسمَّى باللغة اليونانية «بروتس» له حرم جميل جدًّا، يقيم حول هذا الحرم «فينيقيون» من صور، وسمي هذا الحي كله معسكر الصوريين، ويوجد في حرم بروتس معبد يُسمَّى معبد أفروديت الأجنبية، وأظن أن هذا المعبد هو معبد لهلينا ابنة تنداروس، وذلك لما سمعته من أن هلينا كانت تقيم عند بروتس، ولأن المعبد يسمى معبد «أفروديت الأجنبية»، بينما لا تطلق هذه التسمية على أي معبد من سائر معابد «أفروديت».

ولما كانت «أفروديت الأجنبية» هذه التي تحدث عنها هردوت هي في منشئها الأصلي إلهة الحب والحرب السامية «عشتر» أو «العشتروت» التي توارثها الساميون من بابليين وآشوريين وفينيقيين لبنانيين، وعنهم أخذها الهلينيون وسموها أفروديت، وفي أرجوس كان يُضحى بالخنازير لأفروديت إشارة إلى ارتباطها بالإله البابلي الشاب

الجميل «تموز» الذي عشقته عشتروت،[٥] والذي أصبح في الميثولوجي اليوناني «أدونيس»، واتخذت أفروديت مكان عشتروت، والتي كانت شجرتها أو نباتها المقدس لدى القبائل العربية هي النخلة، ويقال إن كلمة «تمر» العبرية والعربية كلمة مرادفة لاسم هذه الإلهة التي عبدها العرب في نخلة نجران كإلهة، وكانوا يزينونها سنويًّا بأزياء نسائية ملونة، وهو تقليد ظل ساريًا حتى العصر الفاطمي، بل والطولوني في مصر.

وكان لعشتروت معبد يسمى «بيت غابة لبنان»، أو معبد «إلهة الجبل»، كما ذكر معبد في قصة موسى باسم «بيت ابنة فرعون.»

وقد يكون هو نفسه ما دعاه هردوت باسم «معبد أفروديت الجميلة»، نظرًا لأن كلًّا من هاتين الإلهتين، ذا المنبت الواحد تُعرف بإلهة البحر، وهو نفسه ما ينسب للإلهة الأم لقبيلة إبراهيم سارة، التي ومنذ أن أصبحت إلهة متفائلة مخصبة أو منجبة، حين وُعدت من ملاك الرب بأن من نسلها سيخرج «كالرمل الذي على شاطئ البحر»، أصبحت هي أيضًا «سارة» إلهة البحر، مثل أفروديت وعشتروت، وهذا هو جانب توحد سارة مع أفروديت.

أما فيما يتصل بهلينا زوجة منيلاوس التي اختطفها باريس أو الإسكندر — كما يسميه هردوت — ثاني أبناء «برياموس» ملك طروادة، وكان ذلك الحادث سببًا لاشتعال نار الحروب الطروادية المتصلة، التي جاءت بها الإلياذة الهومرية، وهي الحروب التي استمرت أحد عشر عامًا من ١١٩٢–١١٨٣ق.م.

والربط بين سارة وهيلانة يتبدى في أن كلًّا منهما عدت زوجة مخطوفة، أو منتزعة من زوجها، سارة من زوجها إبراهيم، وهيلينا من زوجها منيلاوس.

وبالرجوع إلى تلك القصة التي ذكرها هردوت عن الملك بروتس ملك فاروس المقدس، الذي وعندما تناهى إليه خبر اختطاف باريس — الذي يسميه هردوت الإسكندر — لهيلانة، وللخطيئة التي ارتطبت في حق «منيلاوس» زوجها، وذلك بعد أن «طوحت بباريس أو الإسكندر رياح عاتية مضادة في البحر المصري البحر الأبيض المتوسط، ومن هناك وصل إلى مصر، وإلى ما يسمى الآن — هكذا يقول هردوت — بفرع النيل الكانوبي والملاحات»، فما إن سمع بروتس ملك فاروس أو الإسكندرية المقدس بهذا الحدث، من

[٥] كانت تعرف بالمتعددة الأسماء، ومنها تأوهات الجماع الجنسي: يوه، ياه، كما أن من هذه الأسماء ما أطلق على العاصمة اللبنانية بيروت.

رسالة بعث بها إليه أحد أمرائه يقول فيها: جاءنا أجنبي يتوكري الجنس بعد أن ارتكب ذنبًا فاحشًا في بلاد اليونان، إذ غرر بزوج مضيفه بالذات وأحضرها معه هي وثروة طائلة جدًا، وقد طوحت به الرياح إلى أرضك، فهل تدعه يقلع دون أذى، أم تجرده مما جاء به؟ فرد «بروتس» على ذلك قائلًا: اقبضوا عليه مهما كان شأنه، هذا الرجل الذي ارتكب إثمًا منكرًا في حق مضيفه، وأحضروه إليَّ حتى أعرف ما عساه أن يقول، فالزوجة المختطفة أو المغتصبة مثلها مثل الطروادية، لمدى عشر سنوات، كما أن بسببها بالنسبة لتراثنا الأرض أو الوطن عُدت كبيرة الكبائر، وبسببها اندلعت الحروب العربية، اندلعت حرب البسوس التي امتدت ٤٠ عامًا، في ملحمة الزير سالم، عندما أقدم الملك التبع حسان اليماني عقب حصاره البحري للشام وفلسطين، واختطافه لجليلة، زوجة الأمير الفلسطيني كليب بن مرة.

فكان أن تآمر كليب متنكرًا في زي مهرج الملكة الجليلة ليلة عرس التبع المغتصب الغازي حسان اليماني، فقطع رأسه واسترد حبيبته، وكانت حرب البسوس القبائلية الضارية.

ومن هنا فإن نقاط الالتقاء والتطابق، بين بروتس هذا الذي يصوره هردوت بمظهر المدافع عن الزوجة المغتصبة هيلانة زوجة منيلاوس ملك إسبرطة وبين الفرعون الذي خدع في البداية بحسن سارة، لكن ما إن علم بأنها زوجة إبراهيم حتى ردها إليه، ومعها هدايا كثيرة من بينها هاجر جاريتها المصرية، والتي باسمها تسمت بعض القبائل العربية بعد ذلك «الهاجريين» مثلما تسمت القبائل الرعوية الحيثية بالحيثيين، نسبة إلى إلهتهم الأم «حيث»، أو «هاتور».

وإذا ما تركنا الزوجة المختطفة سارة، وعدنا إلى عَدُوَّتها المضطهدة هاجر نجد أن في مغزى احتفاظ هذا النص بنسب إبراهيم لابنه إسماعيل إلى هاجر: «يا ابن هاجر»، وكذلك لزوجته الثانية حين راقت في عينيه فباركها، بل هو ضاحكها: «ما فيش أجازة يا بنت هاجر»، وكذلك تركيز النص على أن إسماعيل قد أصبح أُمَّة كبيرة، وصلت بيوته إلى «ألف وعشرومية»، وأنه أصبح هو الآخر «بطرق» أو شيخ قبيلة، فمن الأرض نبع له الماء، وهي صفة تحيله على الفور إلى الألوهية، فما من إله إلا وعرشه على الماء، كما أنها صفة أو هبة سبق أن أضفت على أبيه إبراهيم من قبله، وكيف أن ماء الآباء كان يستجيب له مثل بئر سبع، وكما يشير الأب «مرتين» اليسوعي، فإن إبراهيم ورث أدونيس، في

إضفاء اسمه على نهر إبراهيم في لبنان «الذي لقبه القدماء» بنهر أدونيس إلى ما قبل الفتح العربي.

ويوحد معظم الميثولوجيين، ومنهم «رينان» إبراهيم مع إيل إله جبيل بلبنان، ومن أسمائه «بيت إيل»، وهو ما كان يُطْلَق على جبل لبنان، وشملت التسمية لبنان بعامة.

ومما يعزز هذا التوحد بين إيل وإبراهيم، هو أن كليهما أقدم على التضحية بذبح بكره، إيل حين توهم الغدر يومًا بولده الوحيد المدعو «شديد»، وإبراهيم مع إسماعيل لحين الفداء بخروف الضحية.

كما أن كليهما صاحب سيرته أو أسطورته، الملاك توت أو تحوت الذي اكتمل في الملاك الرسول جبرائيل.

ومن المجدي التوقف قليلًا، عند أعظم آلهة الشعوب السامية «إيل» المتوحد ببطلنا إبراهيم الخليل.

ومعنى الاسم «إيل» أو إيل إلوهيم أي رب الأرباب في اللغات السامية، أو القدرة أو القوة، وعند اليونان والكلدان «إيليوس» أي الشمس، ويذكر بنصه في التوراة على أنه الله، ومن اسمه جاءت تسمية إسرائيل التي تسمى بها يعقوب عقب زواجه من راشيل أم النبي يوسف، ومعناها بالسريانية ولي الله أو ولي إيل، كما أن من اسمه جاءت تسمية ملائكة العرش، أو أربعة أركان التابوت عند كافة الشعوب السامية وهم: جبرائيل وعزرائيل وميكائيل وإسرافيل، فجبرائيل رسول الله، جبرا معناها رسول، وإيل: الله، وعزرائيل عبد الله، عزرا معناها عبد، وإيل: الله، وميكائيل صفي الله، ميكا معناها صفي، وإيل: الله، وإسرافيل ولي[٦] إيل.

فبعد أن انتصر إيل على أبيه، وتمكَّن من اصطياده وحبسه في أعماق الهاوية بنى مدينة جبيل أو بيبلوس في فينيقيا، وعُرف بعد ذلك بإيل إلوهيم، أو برب الأرباب، ومما يوحده بإبراهيم إقدامه على التضحية بابنه الوحيد، فيقال إنه كان لإيل ولد وحيد يُدعى شديدًا، توهم فيه الغدر يومًا، فذبحه بيديه، وبعد ذلك فعل نفس الشيء بابنته، فكان أن «خافته الآلهة وامتلأت قلوبهم رعبًا»، وعندما سئم أبوه إله السماء منفاه، أرسل إليه بابنته عشتروت وأختيها رية أو «سميرنا»، أو «ديونا»، أو «بعلتي، أي سيدتي»

[٦] التيجاني، ص١٥٤، وهب بن منبه.

للإيقاع به، لكن إيل تمكن من استمالتهن وتزوج بهن، وولد لإيل من عشتروت سبع بنات، يعرفن في المثيولوجي الكنعاني الفلسطيني بالطينيات أو الترابيات، كما أنه أنجب من رية سبعة ذكور، وعاد فأنجب من عشتروت ابنتين أخريين هما: الشوق والعشق.

وبعد أن حكم إيل ٣٢ عامًا، عاد فأوقع بأبيه بعد أن نصب له الفخاخ التي أوقعه فيها، وحين أصبح بين يديه مزق أطرافه وأعضاءه، وألقى بها مع دمه في مياه الينابيع والآبار والأنهار، ثم إن إيل وزع ملكه اللامحدود على أبنائه، فأعطى عشتروت ملك أتيكة، وهي جزء من بلاد اليونان، وأعطى مدينة جبيل بعلتي، ووهب بيروت لبوصيدون إله البحر.

وعندما تفشى الوباء في ممالكه المترامية، ذبح ابنه الوحيد ترضية لأبيه السماء، ويقال إنه كان أول من اختتن، وأمر جميع أهله أن يحذوا حذوه ويختتنوا، كما ينسب لإيل أنه كان أول من تزوج بجنية مائية اسمها «عين عبريت»، أو عفريت، وأنجب منها ولدًا وحيدًا؛ ولذلك لا يزال الفينيقي يسمي ابنه الوحيد يحيد أو وحيد، إلا أنه عاد فذبحه، وبعد ذلك وهب حكم مصر للإله توك أو تحوك، إله الفكر الذي اكتمل في الملاك الرسول جبرائيل.

ولقد اختلف المؤرخون البيزنطيون بخاصة في التعرف على نسب إيل إله آسيا الغربية أو الساميين الأوائل الجبار هذا، فنسبه البعض إلى سام ونسبه البعض الآخر إلى حام، ووحده البعض الثالث مع إبراهيم الخليل، ذلك أن جميع الشعوب والقبائل السامية ادعت انتماءها إلى هذا الإله، فظهر في آخر أسمائهم مثل عموائيل وإسماعيل، أي سمع إيل، ورفائيل وميخائيل وصموئيل ... إلخ.

ولقد حدد بلوتارك مكان إقامة إيل في جزيرة أو في «المجدية» التي هي خلف الأقيانوس الكروني، وفي بعض أساطيره أن حيتان البراري أَسَرَته، واحتجزته في إحدى الجزر القريبة من الجزائر الإنجليزية.

وينسب لإيل الذي أصبح كرونس عند اليونان كما يقول فيلو[٧] إنه كان يملك أربع عيون: عينان إلى الأمام، وعينان إلى الخلف. عينان مفتوحتان، وعينان نائمتان، ومعنى هذا أنه كان في مقدور هذا الإله إيل «أن ينام متيقظًا، ويستيقظ وهو نائم.»

[٧] فيلو الدمشقي أعظم مؤرخي الأساطير اللبنانية والسورية والفلسطينية، القرن الثامن ق.م.

أما الثور فكان الحيوان المقدس لإيل، ومن ألقابه «الثور إيل» ونسبت مكتشفات رأس شمرا للإله إيل أنه أنجب ابنًا يُدعى «كريت»، وكان كريت هذا ملكًا على سدوم، وأمره أبوه إيل بالقيام بغزوة تقودها الإلهة «تيرا»، أو طيرة لتأديب شعب زبزلون، وهي قبيلة أصبحت فيما بعد جزءًا من فلسطين المغتصبة كانت تشغل المنطقة الواقعة بين جبل الكرمل وبحيرة الجليل، وبعد أن عاد كريت من حروبه اشترى زوجة أنجب منها طفلًا جميلًا كعشتر، كريمًا كأنات، ويقال إنه كان طفلًا عجيبًا، إذ إنه ما إن ولد حتى دوى صوت صارخًا: «أنا أكره الأعداء»، وسمي هذا الطفل «دانيال»، وعندما كبر أصبح بطلًا أسطوريًّا، فنبغ في فن العرافة، وأنجب ابنة أصبحت فيما بعد «ملكة كل الأسرار»، ويبدو أن دانيال هذا هو ما عناه النبي حزقيال، حين قال لملك تيرا أو طيرة: «أنت أعقل من دانيال، ولا سر يخفى عليك.»

وتنسب هذه الأساطير لمجموعة واسعة جدًّا من شعوب وقبائل الأقوام السامية الانحدار من صلب إبراهيم، فلقد تزوج إبراهيم بنساء ثلاث؛ منهن: هاجر المصرية التي أنجب منها إسماعيل أبا العرب، سكان نجد والحجاز، وقيدار وحدد ويطور وقدمه ... إلخ.

ومن رحم سارة أنجب إسحاق الذي أنجب بدوره يعقوب أبا القبائل الإسرائيلية الاثنتي عشرة وهم: راوبين وشمعون ولاوي ويهوذا وبساكر وزبزلون ودان ويوسف وبنيامين ونفتالي وجاواشير، وكذلك أنجب إسحاق «بني عيسو» أو بني العيس، نسبة إلى ابنه البكر العيص أبي الملوك الأدوميين في بادية الشام والأردن، وهو البري الذي تعارف عليه بالرجل الأشقر.

وكانت زوجة إبراهيم الثالثة التي تزوجها عقب وفاة سارة، امرأة كنعانية تُدعى قطورة، فَمِن رحمها انحدر ستة ملوك أو أقوام هم: زمران ويقشان ومدان ومديان وبشباق وشوحا، ومنهم جاء ملوك شبا أو سبأ، وددان أو ديدان، وسيناء ... إلخ.

ويقال إن هذه الأقوام والقبائل العربية من أدوميين وموآبيين وعمالقة وعمونيين ومديانيين، وغيرهم من أعراب سوريا، تحالفوا عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وغزوا مصر تحت اسم «الهكسوس» أو ملوك الرعاة، أخضعوها لمدة قرنين.

ومما جاءت به النصوص الثمودية في نجد والحجاز تركيزها على أعظم الآلهة الساميين بعامة وهو الإله إيل، مثل «يعذر إيل، صنم إيل، عزرائيل، سعد إيل، ود إيل.»

ويكنى عن الاسم إبراهيم بأبي الخليل، أي خليل الله أو صفي الله «إيل» بالسريانية، أبرا معناها صفي أو خليل، وإيل هو كبير الآلهة السامية إيل، ويرد بهذا الاسم فعلًا كبير في حفائر بيبلومي بلبنان، ورأس شمرا، وقرطاج وكريت.

ولقد خلف كبير الآلهة السامية، إيل هذا اسمه على كثير من الأماكن التي ما تزال مقدسة في سوريا ولبنان وفلسطين وإسرائيل بـ «بيتل»، وتعرف بشكل مضغم أو «بيتول»، ومنه تواتر تعريف مريم بالعذراء البتول، أي التي تنتمي إلى بيت إيل أو إيلات، ومن اسمه كما ذكرنا جاءت تسمية إسرائيل، وملائكة العرش وأسماء الإعلام العربية والعبرية والمسيحية، مثل: صموئيل وجبرائيل وميخائيل أو ميكائيل «أنجلو» ودانيال أو دانييل، وسعدئيل وسعدية، ووائل، وكامل، وإميل ... إلخ.

وهناك اعتقاد في وجود علاقة بين «إيل» إله جبيل وإبراهيم، وهو الذي تحفظ له الأساطير أنه ذبح ابنًا وابنه بيديه بما يذكرنا بإقدام إبراهيم على التضحية بذبح إسماعيل، كما قد يتوحد كل من إبراهيم إلى رب البرية وإسماعيل، في استجابة المياه لهما، ثم «الخضر الذي سمي خضرًا؛ لأنه ما من مكان يحل به إلا ويعتريه الاخضرار»، كما يمكن إضافة موسى لهم، نظرًا لاستجابة مياه البحر له، حين ضربها بعصاه فانشقت، يقول الثعالبي: «إن الأرض برمتها كانت تأتمر بأمر موسى وتطيعه»، وكذلك أوزيريس وتموز وديونسيوس، وديونسيوس زاجريس الكربتي.

الماء والعطش في هذه البلاد

ويلعب الماء والعطش دورًا ملحوظًا على طول أحداث هذا النص الشعري المدائحي «سارة وهاجر»، فالماء أو «الموية» هو عصب حياة هذا النص، كما هو بالنسبة للصحاري والبوادي والبراري.

فإبراهيم حين يبكي فراق بكره إسماعيل يصوم «عن الزاد وشرب الموية.»

وحين يواجه إبراهيم — متوحدًا بإسماعيل — بجفاء وجحود زوجته الأولى «الهنية أو العفوفة»، يرتمي على الأرض، ويرشونه بالماء «رشوا عليه موية»، أما حين يتبدى له ضيق إسماعيل في الحلم «نزلت دموع العين موية.»

كما أن كلاهما «إبراهيم وإسماعيل» يجري الماء له، حيث يتواجد إبراهيم حين نبعت له «بئر سبع» بفلسطين، وبِكْره «إسماعيل الذي من الأرض نبعت له الموية»، حيث منفاه بالوادي غير ذي زرع بمكة أو برية فاران، حيث نبعت له بدوره بئر زمزم بعد أن كوت ألسنة العطش، بحثًا عن الماء في جدب الصحراء، هاجر أمه، فكان أن ضرب برجله إسماعيل، ب «فنبعت زمزم»، وفاضت في الوديان القاحلة.

وكذا يجيء رضاء الشيخ «البطرك» إبراهيم للزوجة الثانية، حين أكرمت استقباله في العام التالي، حين قدم لزيارة إسماعيل من أرض فلسطين إلى مكة، فقدمت له «اللبن الحليب ويًّا المزازة.»

وكما يحفظ النص التزام إبراهيم بوعده الذي سبق أن قطعه لسارة، بألَّا ينزل عن بَكْره أو جَمَلِه أو ناقته، فتوقفت الزوجة الثانية في مواجهته وهو على جمله — في النص العربي — أو حماره ومطيته — في النص العبري — «شايلة الطعام وعلى إيدها الموية.»

وعليه فنحن بإزاء آلهة «رزق» على عادة ما هو متبع حتى في التسميات لدى فقراء الشرق الأدنى القديم، الذين تحظى الصحراء والجدب بالنصيب الأوفر لهم.

ولعل صراع الماء وموارده هو جوهر الحِمى والحماية عبر قحط الصحاري والبوادي، إنه البديل السالف لصراع البترول والطاقة اليوم.

لذا يُنسب لشيخي القبائل السالفين؛ إبراهيم وبِكره إسماعيل، مقدرة نبع الماء لهما من الأرض القاحلة، إسماعيل في مكة، وإبراهيم في بئر سبع الفلسطينية.

فلقد كانت الكعبة قبل تفجر بئر زمزم بها يسمونها «الأخشف» أو «الغبغب»، وواضح أنها أسماء آلهة ماء ورزق، في ذات المكان «البانثيون»، أو مجمع الآلهة القبائلية العربية، الذي ينسب لشاعر وملك كاهن خرافي يُدعى «عبيد بن شريه الجرهمي» استقدام وتنصيب أصنام مكة التي قيل إنها بلغت ٣٦٠ صنمًا وإلهًا قبائليًّا بعدد أيام السنة القمرية، أو الهجرية الإسلامية فيما بعد واليوم.

فلقد عبد الساميون بعامة آلة الرزق والمن هذه منذ أقدم العصور، والتي تواترت إلى حد المقولات المبطلة والمعوقة لكل محاولات في اتجاه التغيرات الاجتماعية والطبقية، مثل «يبسط الرزق لمن يشاء»، و«يرزق من يشاء بغير حساب.»[١]

فكان العرب الجاهليون يعبدون الدهر والقدر والماني، وجمعها منايا أو منوات في هيئة أصنام، فكان الصنم: منايا أو مناة، من أقدم المعبودات الجاهلية.

ويذكر هشام الكلبي أن صنم الإلهة مناة كان منصوبًا على ساحل البحر،[٢] بين مكة والمدينة، وكان معبودًا لقبائل الأوس والخزرج من أهل يثرب.

ويضيف ابن الكلبي أن العرب جميعًا كانوا يعظمون الإلهة «مناة»، ويذبحون لصنمها، كما أنهم تسموا باسمها «عبد مناة، وزيد مناة، وتيم مناة ...» إلخ.

والإلهة «مناة» من منشئها، إلهة الموت والقدر عند البابليين العراقيين، وعُرِفَت بنفس اسمها العربي عندهم «مامانتو»،[٣] وعن البابليين عرفها الكنعانيون والأراميون والأنباط الأردنيون إلى أن وصلت العرب فيما بعد، فعرفوها بنفس الاسم، أو ما يقاربه «منى»، وذكرت «منى» متوحدة مع الإله «جاد» إله قبيلة جاد في العهد القديم.[٤]

---

[١] وهو ما توسع في استخدامه السادات عبر تضليله الدنيء.

[٢] البكري: ٩٥٦، الأصنام: الجزء ١٢، تاج العروس: الجزء١٠، ص٢٥١.

[٣] وكان البابليون يتخاطبون معها باسم «ويا مناة يا إلهة الموت والقدر، أو يا أيتها الروح المخيفة وملك الموت.»

[٤] ولعل تسميته أيضًا تشير إلى المن والجور.

ويشير الجمع بين هذين الإلهين؛ منى وجاد إلى ارتباط المنايا والأقدار بالتنبؤ ومعرفة المستقبل، الذي ارتبطت المعرفة له بالإله «جد»، أو «جاد»، والذي من اسمه تسمت قبائل جاد العبرية.

كما أن الإله جد أو جاد كان من آلهة القبائل الثمودية المندثرة قبل منى أو مناة، وكهل ... إلخ، ومن اسم جاد تسمى الإله «بعل جاد» عند اليهود والآراميين والعرب الشماليين في سوريا، وكان يعرف بإله السعد والرزق والحظوظ والمستقبل عامة.

ومن هنا يأتي ارتباطه بالآلهة الدهرية والقدرية والرزقية.

ومن هذه الآلهة الدهرية القدرية إله القمر السبئي نسر أو نسور، الذي ورد في نصوص المسند السبئية باسم «بيت نسور»، بل لقد أطلق على أهل سبأ بعامة «أهل نسور»، ويبدو أنه كان لهم مذهب ديني شبه مميز، نسبة إلى عبادة النسر أو النسور، وسمي معه أيضًا أحد رموز السنة السبئية المتأخرة «ذي نسور.»

وتشير الأسطورة التي أوردها عبيد بن شريه الجرهمي عن الحكيم لقمان بن عاد صاحب النسور أو «ذي نسور» الذي ارتبط موته بفناء أنسره السبعة، ومنها ما يشير إلى قدرية أو «تلفيقة» بسط الرزق والمسيرة، وكانت أسماء هذه النسور على التوالي: المصون وعوض وخلف ومغبغب واليسر أو المسيرة — أي الحظ — وأنسًا — أي لقمان الأنس — وكان سابعها هو النسر لبد، وفسر عبيد الجرهمي «لبد» بمعنى الدهر، بل إن لقمان نفسه عرف «لبد» بالأبد أو الأبدية.

فحين وافت المنية ذلك النسر السابع «لبد»، وسقط مشرفًا على الموت، ولم يطق «لبد» أن ينهض وتفسخ ريشه، هال ذلك لقمان هولًا عظيمًا، ووقع موته منه موقعًا جسيمًا وناداه: انهض «لبد» أنت الأبد، وأنشد لقمان يبكي نفسه:

موتي أتى أموت اليوم يا لبد   وحسرتي أن قد تصرَّم الأبد
فَطِرْ كما كنت سالمًا أبدًا   تحيا ونحيا معًا ونحتفد

ويلاحظ في الأسماء السبعة التي أطلقها لقمان على نسوره السبعة، أنها من الأسماء التي تطلق على الخلفة والذرية، مثل «خلف» و«المصون»، و«عوض»، وعوض أيضًا اسم للإله الجاهلي القدري عوض.

كما يلاحظ أن الإله القمري نسر الذي يتوحد بالدهر والزمن، هو ما أصبح رمزًا قوميًّا لدى أغلب الشعوب العربية والسامية عامة.

كذلك فإنه يثير الالتفات تلقيب لقمان لنسره الخامس باسم الميسر، أو الميسرة أو التيسر وسعة الرزق، وهي كلمة مرادفة للحظ والسعد، ومنها جاء الميسر بمعنى القمار.

ومن المعروف عن المقامرة «أنها نوع من التكهن والاستشارة، إنها جواب الآلهة للسائل»، ولعب الميسر كان في منشئه شعيرة فلكية لاهوتية، مثلها في هذا مثل القرعة، وضرب الأقداح تحت أقدام صنم الإله الجاهلي هُبَل، وذلك حين الإقدام على إتيان فعلٍ جَلَلٍ كالحرب، وأخذ الثأر، والتضحية، كما حدث مع النبي محمد الذي كان يحلو له القول: «أنا ابن الذبيحين»، أي السلف إسماعيل، وأبيه عبد الله، الذي تعرَّض بدوره للتضحية من جانب أبيه المتوحد بإبراهيم (عبد المطلب).

فالميسر والميسرة تترادف مع المن والأرزاق والمنون، والتي تصل إلى حد المنايا بمعنى الموت وانقضاء الأجل.

وهو ما توارد حين طالب إبراهيم الزوجة الأولى لابنه إسماعيل «الهنية والعفوفة»، مبلغًا إياها برغبته في أن يراه، قبل أن توافيه المنية:

قوليلو بيجيلك هنا شيخ كل ساعة
خاطره يشوفك من قبل المنية
خاطره يشوفك من قبل المنايا.

مما يشير أكثر إلى ارتباط المنايا — أي الموت — بالمن وبسط الرزق، الذي اكتمل أيديولوجيًّا وعقائديًّا في بسطه، أي الرزق بغير حساب.

فهذه القدرة والدهرية والوعيدية والمنايا التي تهب الرزق بغير حساب، أفكار مترادفة، وردت بكثرة شديدة جدًّا، سواء في الشعر المنتسب إلى القبائل العربية البائدة، أو عند لاحقيهم من العرب الجاهليين ثم الإسلام، وكذلك ترد بكثرة شديدة في الآلاف المؤلفة، بل الملايين من المواويل والشعر الشفهي الشعبي المعروف بالمواويل الحمراء، أي تلك التي تتصل مواضيعها بأفعال ونكائد الدهر والزمن وتقلبات الدنيا والأيام وإمساكها بالمصير الإنساني ... إلخ.

ولقد عرفت شعوب عرب آسيا الأبدية، التي أَطْلَق عليها العرب الجاهليون مرادف الدهرية والدهر والمنايا والحتف والآجال والحمام والمنون والقضاء والقدر والمقدر والزمان والأيام والليالي والخطوب.

ولقد وحد الساميون الأوائل من القبائل العربية البائدة بين القدر أو الدهر أو المنايا وبين الله، وكذلك تسمت إلهتهم باسم «منى» ومناة، وهي الأخت الثالثة من بنات الله

الثلاث، كما كانت معروفة بهذه الصفة والاسم منذ البابليين الأوائل، وعنهم أخذتها بقية الشعوب والقبائل السامية خاصة العرب الجاهليين فيما بعد.

وتؤدي لقطة «مناة» معنى «الماني» بمعنى القادر، نسبة إلى ابن ماني، الذي قتله الملك «بهرام» ملك الفرس، وقال له: «أنت تقول بتحريم النكاح يستعجل فناء العالم»، ومنها جاءت تسمية مذاهب «المنانية»، أو «المناوية» نسبة إلى «ماني»، وكان راهبًا بحران، وأحدث «دين المناوية»، والمنية تعني الموت، أو أن الموت مقدر محسوب، ويبدو أن لفظة «منية» كلمة سامية مشتركة، وردت في أغلب لهجات الشعوب والقبائل السامية، ويرى البعض أنها مرتبطة بالإلهة البابلية «مامانتو»، وعنهم أخذها الكنعانيون ولقبوها «منى» والإلهة الثمودية «منوات»، ثم «منات» عند العرب الجاهليين، ومنها «عوض»، وهو اسم صنم، وحده الشعراء مع الدهر، و«عوض» كان اسم صنم أو معبود قبيلة بكر بن وائل.

بل إن المستشرق «نولدكة» يرى أن كل هذه المترادفات للقدر والمنون والدهر والموت ما هي إلا أسماء لآلهة دهرية «وليست أسماء أعلام.»

وعلى هذا يلاحظ أن انقضاء سلطة إلهة الرزق بغير حساب، والموت هذه «مناة» المتوارثة منذ البابليين ٢٨٠٠ق.م بهيئتها الضارية المخيفة لم يسقطها أيديولوجيًّا أو عقائديًّا في التراث الإسلامي حتى أيامنا.

«مناة يا إلهة الموت والقدر — الرزق — أيها الروح المخدوم، وملك الموت.»

وكما كانت «مناة» الأخت الثالثة لبنات الله الثلاث، اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى «في الميثولوجيا الإسلامية» الماثلة، فإن الأمر لا يبعد بنا كثيرًا عما كانت عند الجاهليين ورثة البابليين، حين سموا هذا الثالوث بـ «بنات الدهر».

وقائل هذا الشعر الجاهلي التالي يتحسر على أن «بنات الدهر» رَمَيْنَهُ غيلة، فأصبح منه مقتلًا، دون أن يكون في مقدوره الرد على مغتاليه.

وكانوا يصفون الدهر بالرامي، أي ذلك الذي لا يخطئ الرماية:

رمتني بنات الدهر من حيث لا أدري — فما بالُ من يُرمى وليس برام

فلو أن ما أُرمى بنَبْلٍ رميتها — ولكنما أُرمى بغير سهام

وأفنى ولا أُفني من الدهر ليلة — وما يُغْنِي ما أفنيت ملك نظامي

كما أنهم تصوروا الدهر — وبناته آلهة المايا — ساقيًا يسقي الإنسان كأس المنايا:

أسلموا للمنون عبد يغوث وبعض الكهول حولًا يراها
بعد ألف سقوا المنية صرفًا فأصابت في ذاك سعد مناها

ووسع العرب الجاهليون في مفهوم وخرافات الدهر فقالوا: «يد الدهر» و«ريب الدهر»، «عدواء الدهر»، و«غلواء الدهر»، كما قالوا: ما هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر.

وعلى هذا كانوا «أرضيين» غير زراعيين، لم تلحقهم أفكار ومترادفات البعث، والعودة بعد الموت، والحياة الأخرى، على عكس ما كانت أساطير الشعوب الزراعية في دالات الأنهار ووديانها؛ الرافدين والنيل والأردن وفلسطين.

ولما كانت الأساطير في منشئها وغاياتها تأليه لعناصر الطبيعة من برق ورعد ورياح وسحب ورعود جوية، أي فينومولوجية، بما يشمله التعريف من ظواهر مناخية، وإحيائية بيئية، أي تأثير الظواهر المحيطة في مخيلة الإنسان البدائي، الشبيه بكائن طفولي يتفتح على العالم، وهو ما يتبدى واضحًا في تراثنا القديم، وبقاياه المسايرة في تراثنا المعاصر من إغراق في إضفاء مظاهر القدسية على الجبال وقممها، والصحاري ومجاري الماء من بحور لآبار لعيون ماء راكدة عفنة، لا تخلو منها مدينة أو قرية على طول مصر والعالم العربي، ومشاع حول هذه المزارات أو الأضرحة من الآلاف المؤلفة من الخرافات، بل إنَّ من الصعب تصور مدى ما تسببه هذه المزارات العطنة من تدمير للصحة العامة من بدنية بخاصة وعقلية بعامة، بدءًا من آباره المقدسة، ومرورًا بشعائر التعميد بالماء في نهر الأردن، حتى ما ارتبط وأثير حول الأنهار وموارد الماء، التي هي قاسم مشترك أعظم لمهبط عرش الله على أسطح المياه، والتي عادة ما يتوحد بها الإله الخالق ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وكذا ارتباط الإيمان بتفجر أنهار الماء: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (الإسراء: ٩٠-٩١).

فيترتب على تأليه وتقديس موارد المياه والظواهر الطبيعية والبيئية المحيطة، وما يستتبعه هذا من صراع النور أو الخير مع الظلام والشر، وهو المنهج التطوري الذي اكتمل بعد الدارونية، والذي أكده — بالنسبة للأنثروبولوجيا — تيلور ومعاصره أندرو لانج وفريزر (خاصة تفسير تيلور أو سبقه إلى اكتشاف مدى سيطرة العادة داخل هذه

المجتمعات الغيبية بما يحقق توارثها لأدق حياتها وطفولتها الأولى)، حين أراد تفسير ظواهر الطبيعة القاسية من حولهم، خاصة هنا في شرقنا الأوسط الحديث، أو شرقنا الأدنى القديم، فلعل الاختلافات البيئية والظواهرية والجوية هي المخصب الرئيسي لهذا التراث الذي اكتملت فيه الأديان الثلاثة الرئيسية في عالمنا العربي؛ اليهودية والمسيحية والإسلام.

فجغرافية المنطقة — كما يشير د. جمال حمدان — تجمع ما بين دالات الأنهار في دلتا مصر والعراق — أي المجتمع الزراعي — الذي قدَّم تفسيره الأزلي السائد إلى اليوم عن الموت والقيامة ممثلًا في أساطيره عن الآلهة الزراعية الممزقة التي اكتملت في المسيحية.

والمجتمع الصحراوي المجدب القبلي، مجتمع الإغارة على موارد الماء، واعتبار الحرب نوعًا من الصيد، وبالطبع يصل هذا المدخل القبائلي الفاشي عند الجبليين سكان الجبال إلى أقصى مداه.

إلى حد أن تاريخ المنطقة، قديمه وأوسطه ومعاصره، لا يعدو أن يكون تاريخ حرب وإغارة وتنكيل ممتد، خاصة في بؤرة هذه المنطقة الشام وفلسطين، وأينما وجدت موارد المياه أو «الإيلات» — نسبة إلى إيل أو كرونس — ومنها ميناء إيلات العدواني، وبالنسبة لميناء جبل أو جبيل بلبنان الذي يتعاظم دوره السلفي المتخلف في حالة الكتائب، فهي على طول تاريخها مجال نزاع دائم للمئات من القبائل والحضارات والأجناس المتطاحنة.

ويلاحظ أن اقتصاد غرب البحر المتوسط بعامة عبارة عن بنيان مقسم الأجزاء لأقاليم أو مدن يصل فيه الجبل حتى البحر الذي يصنع كثيرًا من الأجزاء المنفصلة المعزولة، التي توجد فيها سهولٌ صغيرةٌ غارقةٌ في الجبل، فالماء بالضرورة كان هدف الإغارة والحروب الأول، طالما أن الأرض قد تتحول إلى مستنقع إن لم توضع وسائل تصريف المياه، أو إلى صحراء إن لم تُرْوَ بالماء، وعلى هذا فأساس حياة الفرد والقبيلة في الشام وفلسطين هو البستان[٥] وليس الحقل.

وكما يقول الجغرافي الفرنسي فرناند موريت، فهي بلاد تجبر فيها تضاريس الأرض سكانها على العمل والصبر والدأب، كما أنها بلاد يعتبر البحر فيها الطريق الأسهل للتجارة

[٥] ولعلنا نتذكر هنا بساتين الآلهة الزراعية، بستان أوزيريس وتموز، وأدونيس، والزير سالم في سيرته الفولكلورية، ومكانه تخوم بئر سبع بفلسطين.

والترحال، فجغرافية الأرض مقسمة إلى دويلات متناحرة، نتيجة لحدودها الطبيعية من سهول وجبال وصحاري، أي مناطق جفاف، وفيضانات ماء ورياح، ومساحات شاسعة خربة، كل هذا فرض نظام القبيلة والعشيرة، وما يتبعهما في أساطير وفولكلور هذه المنطقة المغرقة في القبيلية العصبية، التي عرفت شارة الصليب المعقوف قبل أن تعرفه ألمانيا النازية الفاشية، بأكثر من ٣٠ قرنًا من الزمان.

وعلى هذا فأساطير وفولكلور منطقتنا هي في المحل الأول أساطير وفولكلور القبيلة، وحماها أو موطنها، الذي كان يحده نباح الكلب.

وبالطبع يمكن القول بأن الجسد الفولكلوري لمختلف فولكلور العالم، هو في أدنى أشكاله قبائلي، أو هو ما يزال إلى اليوم يحتفظ بملمح القبيلة، بمعنى أن القبيلة هي أدنى أشكال أي مجتمع بشري، ومن تجمع عدة قبائل واصلت اتحادها، تحت أقوى شعاراتها أو شعائرها، طواطمها أو آلهتها إلى أن تصل في مجموعة القبائل المتحدة أو المتحالفة إلى درجة الأمة أو الحضارة.

ووصل البعض من أصحاب النظريات الطقسية أو الشمسية — مثل روبرت غريفز ورفائيل يتاي — إلى حد الدفاع عن أن انقلابًا تقويميًّا عامًّا قد صاحب معظم قبائل العالم القديم من خلال تحولها من عبادة القمر أو الإلهة الأنثى القمرية، والسير بتقويمه القمري أو الهجري إلى عبادة الشمس، أو الإله الأب الذكر، والأخذ بتقويمها الميلادي فيما بعد، واعتبار السنة ٣٦٠ يومًا، وهو ما صاحب أيضًا المعرفة بالزراعة، والانتقال إلى طورها.

وذهب البعض الآخر من أصحاب النظرية الأنثروبولوجية في تفسير الأساطير، إلى مدى أكثر عمومية تحت تأثير التطور — الوعي — الدارويني، والاستفادة من المادية التاريخية، على اعتبار أن معتقدات وأفكار الناس في تطورها التاريخي تجيء مجبرة أو حتمية لتطور بيئتها ووسائل إنتاجها وعلاقاتها الاجتماعية، أي إن تغيير البناء التحتي — الاقتصادي والاجتماعي — يستوجب بالضرورة تغيير أفكار ومعتقدات وأساطير وعادات وممارسات وأخلاقيات ونظم قرابة وتزاوج وشعائر وقوى غيبية، أي كل ما يتحكم في حياتهم من أبنية اجتماعية.

على هذا فمجتمعات العالم القديم — في مراحل التكون القبلي أو العشائري — قد عاشت في مختلف البيئات والمناخات، من مجتمعات زراعية ورعي وجبل وبحر، والمقصود بالعالم القديم هنا هو مجموعة الحضارات والقبائل العربية أو السامية القديمة، وهو ما

يتضافر في الكشف عنه اليوم مجموعة مترابطة من العلوم، أهمها طبعًا علما الأنثوجرافيا والتاريخ.

وعن هذا الطريق يمكن تعريف الحضارات التي شهدها شرقنا الأوسط وتحديد معالم وخصائص كل منها، ذلك أن الحضارة — كما يعرفها عالم ما قبل التاريخ جوردون تشايلد — تقوم على ما يستخلصه الإنسان من غذائه ومجتمعه الإنساني وكافة نواحي السلوك الإنساني من لغة ودين وفلسفة وأخلاق وقانون، بالإضافة إلى أدوات الإنتاج التي يستخدمها، فعن طريق التكيف مع البيئة أو قوى الإنتاج أو مصادر الثروة الطبيعية تتحدد الحضارة، ومن هنا وبالضرورة تدين سماتها ومعالمها للبيئة وطبيعة المكان.

وهذا هو هدفنا في تناولنا لهذه البلاد سارة وهاجر البيئة واختلافاتها، وتنوع مصادر القوى الإنتاجية لعالمنا العربي، أو منطقة الشعوب السلمية.

وكما سبق أنْ أوضحنا فإن الاختلافات البيئية وبالتالي المناخية، تظهر بوضوح على طول هذا التراث، وهذه البقعة من العالم منذ فجر التاريخ، من صراع بين الحضارة الزراعية في دالات الأنهار، وبين البداوة ومجتمعات الرعي والصيد والإغارة.

ويتركز هذا الصراع بأجلى معانيه في الأسطورة «الأم»، التي حددت أجناس شعوب وقبائل المنطقة السامية، حين قدَّم ابنا نوح «حام وسام» بعد الطوفان قربانهما إلى الرب، وكان أحدهما وهو حام صاحب زرع، والثاني هو سام صاحب رعي، فتقبل الله قربان صاحب الرعي، ولم يتقبل قربان صاحب الزرع، فكان أن حقد الفلاح «قابيل» على شقيقه «هابيل»، وأقدم على اغتياله.

وهي تضمينة أو فكرة أسطورية تتوالى بكثرة شديدًا جدًّا في هذه التراث الطوطمي القبائلي.

ولعل أقدم أشكالها — ٣ آلاف سنة ق.م — جاء بها النص السومري لملحمته جلجاميش في صراع جلجاميش — الفلاح المتحضر — وأنكيدو، الراعي الوحشي الذي تربى مع حيوانات الغابة وشعر رأسه كشعر امرأة.

كما وردت بنصها في صراع ابني إسحاق؛ يعقوب الذي سُمِّي إسرائيل، وشقيقه توصه عيسو أو العيص العربي السوري الأردني، وموطنه الأول أرض أدوم أو الصحراء الأدومية، التي اشتقت منها تسمية آدم أبو البشر بالأردن وسوريا.

كما أنها تتوالى متوارثة إلى ما لا نهاية في ضواحي عرب الجزيرة العربية، بقسميها الشمالي الرعوي العدناني أو الإسماعيلي، والجنوبي الزراعي فيما قبل تخريب سدود اليمن، وهي ٣٠ سدًّا، أهمها سد مأرب.[٦]

كما تطل برأسها على طول التاريخ القديم السابق للإسلام، وحتى فيما بعد مجيء الإسلام، مثل صراع قبائل الأوس والخزرج، من فلاحين ورعاة.

بل إنَّ هذا الصراع حول الزراعة والبداوة يتبدى بشكل خاص في صراع ابني إبراهيم إسماعيل وإسحاق، وهو ما لم يرد ذكره في هذا النص الفولكلوري العربي «سارة وهاجر».

[٦] كما عددها المؤرخ العربي الكبير الهمذاني.

التضحية بالأبناء والفداء

فيحتفي هذا النص أشد احتفاء «بشعائر» التجبر الأبوي، والتزام الأبناء بإطاعة الوالدين، كَسِمَةٍ سلفية قصوى في هذا التراث الثقافي الحضاري بالمعنى الإثنوجرافي إلى حد التضحية، حين أقدم إبراهيم بعد أن زاره الهاتف أو الوحي الملازم له على طول هذا النص، ممثلًا في الملاك جبريل.

وأمره بذبح إسماعيل في يوم التضحية بالأبناء فاتحي الرحم، الذي لا يبعد بنا كثيرًا عن أعياد الضحية والتطهر بالدم في العيد «الكبير».

دبح إسماعيل ابنه نهار الضحية
دبح إسماعيل ابنه ومنه الدم يجري.

ثم كيف هبَّ إبراهيم مبتهجًا، مطالبًا هاجر بالقيام بنفسها «بشعائر» تزيين الضحية ابنها أو وحيدها أو بكرها:

يا هاجر ...
نادى إسماعين خليه يأتي إليَّه
نادى إسماعين خليني أشوفو
كحِّلي لي عنيه وحَنِّي كفوفو.

وهو ما لا يزال محفوظًا متواترًا إلى أيامنا في «وقفة» أعياد اللحم، حين يقوم المضحون بتزيين ضحاياهم من كباش وأغنام وعجول بالزهور، وأحيانًا الصلاصل والألوان، ويطوفون بها الشوارع والحواري في احتفاء بالضحية الحيوانية، التي أخذت مكان إسماعيل، أكحل العينين، مُحَنَّى الكفوف، واحتفاء هذا النص الشعري الإنشادي

الموسيقي «سارة وهاجر» بإقدام الخليل إبراهيم على التضحية بابنه «البكري» أو فاتح الرحم «إسماعيل»، واستبدال الفداء البشري بالضحية الحيوانية التي يُحتفى بها في أعياد اللحم «الكبيرة».

ولعل في هذا ما يشير من جانب إلى مدى قِدَم هذا النص المدائحي، المصاحب لشعائر الاستبدال أو الإحلال للضحية الحيوانية، بدلًا من البشرية، خاصة إذا ما كانت لأب سالف في موقع آدم أبو البشر، وهو إبراهيم بالنسبة للعرب الساميين بعامة.

ومع ملاحظة أن هذا النص المدائحي الشعائر، كان يكثر إنشاده موسميًّا مع قدوم أوان العيد الكبير، وعودة وفود الحجيج من مكة، حيث تقام مراسيم استقبالاتهم من جانب أهاليهم وعائلاتهم، وكالعادة سبق هذا استعدادات استكمال مباني بيت أو دوار الحاج الغائب، وعلى أقل تقدير إعادة طلائها، وتغطية جدرانها الخارجية برسوم وموتيفات تشكيلية شعبية ملونة لوحات الحج وشعائره، مثل: الجمال التي استبدلت بوسائل نقل حديثة كالبواخر والسفن، ورسوم للكعبة وحجر إبراهيم، وإلقاء الجمرات، وكيزان ماء زمزم التي عادة ما يعود بها الحاج أو الحاجة الغائبة، في أوعية وقِرَب جلدية مليئة بالماء الذي تفجر من قدم إسماعيل، يُطلق عليها زمزميات.[١]

وفي هذا الجو المصاحب لاستقبال مواسم الحجيج العائدين، ينشط حفظة هذا النص الشعائري من منشدين ومدَّاحين، لتذكير جموع الحاضرين وعلى دقات الدفوف الضخمة العنيفة بمدى ثقل ما كان حريًّا أن يحدث لهم ولذويهم «البكور»، حين يستل الأب سكينة ليجز رأس ابنه على عادة ما كان متبعًا بكثرة تفوق كل تصور، سواء ما جاءت به النصوص المدونة أو الحفرية الأركيولوجية، خاصة عبر مسرح أحداث هذا النص؛ الشام وفلسطين والجزيرة العربية.

وحيث كانت تنتشر بكثرة مفرطة شعائر التضحية بالأبناء، ووأد البنات عند العرب الجاهليين، على طول كيانات الجزيرة العربية، وحتى وقت لاحق للإسلام، حيث كان المفروض أن يضحي جد النبي محمد (عبد المطلب) بابنه عبد الله.

وأسوق هنا مكتشفات عالم الساميات «ستيورت ماكاليستر» الذي استفاد فريزر من نشر حفرياته في «جيزر» بفلسطين، منها الوصف الجنائزي المرعب لأحد المقابر «الكنعانية»، وهو حجرة أسطوانية ارتفاعها ٢٠ قدمًا نحتت من الصخور التي اتخذتها

[١] وله بالطبع استخداماته السحرية في مئات الخرافات الماثلة المتواترة.

الحضارات الثمودية والنبطية مقابر لدفن موتاهم، وترك مدخلها في قمتها على هيئة فتحة دائرية، وعُثر في أرض هذه المقبرة المتسعة على ١٥ جثة «أو بالأحرى» أربعة عشر هيكلًا ونصف هيكل؛ ذلك أنه لم يُعثر لهيكل أو جثة من هذه الهياكل سوى على جزئه العلوي، في حين لم يُعثر على جزئه السفلي.

مما يرجح أنه قبر «شعائري» فلسطيني أو كنعاني، كان يجري فيه وعلى أرضه التضحية بالأبناء.

ومنه هذا الوصف — المحزن — لهيكل جثة فتاة، أورد سير جيمس فريزر وصفه كاملًا.

الفتاة تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، وقد قُطع جسدها أو نُشر من الوسط عند الفقرة الثامنة من عمودها الفقري عند التجويف الصدري، وحيث إن الأجهزة الأمامية من الضلوع قد هُشمت عند هذا المستوى، فإنه من الواضح أن هذا التهشيم قد تم في مرحلة كانت العظام تستند فيها على أجزاء الرخوة من الجسم الأنثوي. وأما سائر الهياكل فهي هياكل رجال، اثنان منها لشابين يبلغان من العمر الثامنة عشرة، أو ربما التاسعة عشرة، والباقي لرجال كاملي النمو معتدلي القوام، قويي البنية، ويدل وضع الهياكل على أن أصحابها لم يطوحوا في الحجرة من خلال فتحتها العلوية، وإنما هبط بهم رجال إلى داخل الحجرة. كما أنه يُعتقد أن كميات الفحم الكبيرة التي عُثر عليها بين العظام تدل على أن حفلًا جنائزيًّا أو تضحية، أو أي طقس مقدس آخر قد أُدِّي داخل حجرة الدفن. كما نظر علماء الآثار إلى بعض الأسلحة البرونزية الدقيقة، مثل رءوس الرماح وفأس وسكين، تلك التي عُثِر عليها بجانب الجثث، بوصفها شاهدًا أن هذا الدفن قد حدث قبل ظهور العبريين في فلسطين. كما استدل العلماء من شكل عظام هذه الهياكل وتجاويف الجماجم الواسعة، ومن أنوفهم المقوسة، وبعض الخصائص التشريحية الأخرى أن الذكور يمثلون نموذجًا لعنصر لا يختلف عن عرب فلسطين اليوم.[٢]

ويرى فريزر أن هذا التشابه الجسدي بين هؤلاء الرجال القدماء، وسكان فلسطين المعاصرين كافيًا لأن يبرر لنا أن نعدهم أفرادًا ينتمون إلى أصل واحد، فربما حق لنا أن

[٢] ولعله أو سندرا يسوقها علميًّا وتلقائيًّا أبو الأنثروبولوجيا المعاصرة سيرج فريزر على الأحقية التاريخية للوطن الفلسطيني في أرض فلسطين.

ننتهي إلى أن كليهما ينتمي إلى الأصل الكنعاني، الذي كان يستوطن فلسطين قبل غزو العبريين لها، والذي لم ينجح العبريون قط في إبادته، على الرغم من محاولتهم إخضاعه لسطوتهم، فوجهة نظر الخبراء أن الفلاحين المعاصرين والمزارعين الفلسطينيين الذين يتحدثون اللغة العربية، إنما هم سلالة القبائل الوثنية التي سكنت فلسطين قبل الغزو الإسرائيلي، وارتبطوا بأرضهم منذ ذلك الوقت، وعلى الرغم من أن موجات الغزو المتعاقبة على فلسطين قد غمرتهم، إلا أنها لم تنجح في القضاء عليهم، فإذا كان الأمر كذلك، فإنه يحق لنا أن نفترض أن الهيكل النصفي للفتاة الذي عُثِر عليه في «جيزر»، يُعد أثرًا باقيًا لعادة التضحية بإنسان، تلك العادة التي لعبت دورًا بارزًا في الديانة الكنعانية، ونحن نستدل على ذلك بالعادة المشابهة لها التي أشار إليها الأنبياء العبريون، وكتاب العصور الكلاسيكية القديمة، وقد دعم هذا الافتراض ما عُثر عليه من هياكل لأطفال عُثر عليها في «جيزر» محفوظةً في جرار تحت أرض المعبد، فقد اعتقد الباحثون في العادة، أنَّ هذه المخلفات تشهد على عادة التضحية بالابن الأول أو البكري، فاتح الرحم، كما هو في حالة إقدام إبراهيم على التضحية بإسماعيل ابن هاجر تكريمًا للإله المحلي، وقد عُثر على مزيد من هؤلاء الأطفال المدفونين في جرار حول معبد منحوت في الصخر في بلدة «تعنك» في فلسطين، وقد فسَّر تحنيط هؤلاء الأطفال على النحو الذي أشرنا إليه.

ولكن إذا كان هيكل الفتاة الذي عُثر عليه في مقبرة «جيزر» يمثل حقًّا بقايا عادة التضحية بإنسان، فما زال علينا أن نتساءل: لماذا شُقَّ جسد الفتاة أو نُشر على هذا النحو؟ إن عهد إبراهيم الذي نقيس عليه، وبالمثل الطقوس المتشابهة التي تحدثنا عنها، تشير إلى أن شطر الفتاة الضحية إلى شطرين، ربما كان يقصد به الوقاية الجماعية، أو التصديق على عهد، أو أننا نفترض — حتى نكون أكثر وضوحًا من هذا — أن جسد البنت قد قُطع إلى نصفين، وأن الناس مروا بين هذين النصفين، إما بقصد تضليل قوى شريرة كانت تعيش بينهم أو تتهددهم أو بقصد تأكيد معاهدة سلمية تأكيدًا يتسم بالرهبة، ولنبدأ الآن بالتفسير التطهري أو الوقائي.

فعندما استولى «بيليوس» على مدينة «أولكس» ودمرها، وأسر زوجة ملك المدينة وتُدعى «استي داميا»، قطعها إلى نصفين، وترك جيشه يمر بين هذين النصفين قبل أن يدخل المدينة، ولا يبدو أن هذه العادة المتوارثة من قبيل الاختراع الصرف، فربما كانت بقايا عادة بربرية متخلفة، كان يتبعها الظافرون عند دخول المدينة المندحرة، ونحن نعلم أن الإنسان في العصور الأولى كان يخشى كل الخشية من سحر الغرباء، وأنه كان

يقوم باحتفالات عديدة؛ لكي يحصن نفسه ضد هذا السحر، سواء عندما يسمح لغرباء أن يدخلوا بلدته، أو عندما يخطو هو نفسه إلى أرض قبيلة أخرى، وربما كان خوف مشابه لهذا من سحر الأعداء، يدفع المنتصر أن يصطنع احتياطات غريبة بقصد حماية نفسه وجيشه من مكائد أعدائه، وذلك قبل أن يجرؤ على دخول المدينة التي استولى عليها منهم بسيفه، وربما تمثل هذا الاحتياط الغريب في أسر أسير، وشق جسده أو جسدها إلى نصفين، وجعل الجيش يمر بين النصفين وهو في طريقه إلى المدينة. ووفقًا لتفسير السر المقدس لهذا الطقس، فإن التأثير الذي يحدثه المرور بين جزئي الضحية من شأنه أن يخلق عهدًا دمويًّا بين الظافرين والمنهزمين معًا، ومن ثم فهو يؤمن المنتصرين ضد كل المحاولات العدائية من جانب المنهزمين، وهذا يفسر ما قام به «بيليوس» عند دخوله مدينة «أولكس»، عندما أسر الملكة، وشق جسدها إلى شقين، فإذا كان هذا الإجراء وسيلة مقدسة لخلق وحدة بين الغزاة والمغزوين، وإذا كان هذا التفسير مقبولًا، فإنه قد يشير إلى أن الجثث المشطورة إلى نصفين التي عُثر عليها بالمقابر الكنعانية، سواء في فلسطين، أو ربوع الشام بأسره، من كنعانيين لفينيقيين لثموديين لموآبيين، هدفها الأمن وافتقاده.

فلعل شعائر التضحية بالأطفال والأبناء والنساء، ربما كانت قاسمًا مشتركًا لا يستهان به بالنسبة لروافد حضاراتنا العربية، منذ ما قبل التاريخ، أو منذ أفول الألف الثالث قبل الميلاد، وهو ما صاحب نزول إبراهيم إلى أرض كنعان، وصاحب تضحياته من حيوانية طوطمية وبشرية، ممثلة في إسماعيل وإسحاق، ومنها أولى تضحياته المصحوبة بدلالتها الطوطمية: «لتضح لي ببقرة عمرها ثلاث سنين، ونعجة عمرها ثلاث سنين، وكبش عمره ثلاث سنين، ويمامة وحمامة صغيرة.»

وما إن قام الخليل بشطر ضحاياه إلى نصفين ومزج السائلة بمحرقة أعلى الجبل، حين تزاحمت جوارح الطير، التي جاهد إبراهيم في طردها إلى أن استغرقه النوم مع غروب الشمس.

وبالطبع تنتهي الخرافة بأتون النار الخاطف عبر ظلام الصحراء الجاثم، وظهور الرب، وقطع العهد، أو أخذه الذي ما يزال متواترًا إلى أيامنا وداخل أنماط التصوف الشعبي، وطرقه المتعددة المسالك، والتي توثق «بقطع العهد» الذي عادة ما يصاحبه التوعد بالدم، والتطهر به في ذات الآن.

ولقد شغل موضوع الإكثار من شعائر التضحيات البشرية، وعلى مدى أطوار العمر المختلفة عديدًا من الأنثروبولوجين والمختصين بالدراسات السامية، أهمهم روبرتسون

سميث، الذي أشار إلى أن الهدف من التضحيات العنيفة هذه هو الربط والالتزام والتحالفات — قبائلية — الدموية.

ووصل البعض في تفسيراتهم لشعائر التضحيات البشرية، نظرًا لكثرتها بأنها كانت نوعًا من تحديد النسل البدائي أو التلقائي، سواء للآلهة أو الطواطم الإلهية، أو للعبادات الطقسية من شمس وقمر وكواكب وأجرام، وأهمها هنا الشِّعرَى اليمانية ونجمة الصباح المعروفة باسم العزى، وذكرت في القرآن كأخت ثانية لبنات الله الثلاث ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩-٢٠].

فهي نجمة الصباح، التي ما زالت متواترة داخل رقعة الأغاني والمواويل الفولكلورية بكثرة واضحة، وكذلك ترد في الأغاني الدينية، وأغاني التخمير تحت اسم ليليث أو ليلى.

وينسب للملك الشاعر المداح الجاهلي عمرو بن لحي الجرهمي، مسجوعات حول العزى هذه منها: «إن ربكم يشتو بالعزى لحر تهامة، ويتصيف باللات لبرد الطائف.» فالأخت الثانية من بنات الله الثلاث «العزى»، عُرِفَت بدورها تحت هذا الاسم في الميثولوجيا البابلية، وقيل إن معناها ملك أو إله النار، فالعزو هي النار في اللغة البابلية، ومعناها في العبرية الدة أو القوة (تاريخ كلدو وآشور، مجلد … ص٨).

وبحسب رواية تيودوروس بركوني هي نجم الصيح، ولها أسماؤها المختلفة باختلاف الألسن؛ فطيء دعتها عوزى، واليونان أفروديت، والقدشيون طشقميث، والكلدانيون بلتى أو بلثى، والأراميون أستيرا، والراداتيون ملكة أشعيا، والعرب ناتي.

ويمكن القول بأن العزى عند العرب هي في منبتها الأصلي «إينانا» عند السومريين، والتي اشتهرت باسمها الأكادي عشتروت عند البابليين، وإناثا أي أنثى عند الكنعانيين، وإيزيس في مصر، وأفروديت عند اليونان، وفينوس عند الرومان، وكوبيلا عند الحيثيين.

يقول نولدكة: «إن الشاعر السوري إسحاق الأنطاكي الذي كان يعيش في أوائل القرن الخامس الميلادي ذكر احتفاء العرب بعبادتهم العزى أو نجم الصباح أو الزهرة «فينوس»، كما يقال إنهم كانوا يقدمون لها التضحيات، فالمنذر ملك الحيرة قدَّم لها قربانًا من الأسرى، وقيل إنه — أي المنذر — ذبح ابن حليفه المسيحي الملك الحارس، قربانًا لها.»

«إن ربكم يشتو بالعزى لحر تهامة، إلهة فصل الشتاء والاخضرار والخصب والجنس»، كما يقول الملك الكاهن عمر بن لحي.

فكانت العزى إلهة للجنس والإخصاب عند العرب، كما كانت عند البابليين، ويعتبر الحمام والغزال من طيورها وحيواناتها المقدسة، وهما نفس شعائرها عند البابليين والسوريين والنبطيين،[٣] وكان العرب الجاهليون مغرمين بتشبيه النساء الجميلات بالغزال.

يقول الألوسي: «كانت المرأة من العرب إذا عسر عليها خاطب النكاح، نثرت جانبًا من شعرها، وكحلت إحدى عينيها، وحجلت على إحدى رجليها، ويكون ذلك ليلًا، وتقول: يا نكاح أبغي النكاح قبل الصباح»، أي إنها تريد الزواج أو المخاطبة الجنسية قبل ظهور نجم الصباح أو الزهرة، وتحفل المواويل والأغاني الشعبية، بآلاف القطع الشعرية التي تتغنى إلى اليوم بنجمة الصباح.

ويضيف سميث: إن عبادة الزهرة أو نجم الصباح والتضحيات البشرية لها انتشرت في اليمن، وخلال إقامة شعائر أعيادها كانت تقام الاحتفالات والأفراح المختلطة، أو ما عرف عند معظم الشعوب والأقوام السامية بالعرس المختلط، وما تزال بقاياه سارية حتى وقت قريب خلال الاحتفالات بالموالد المحلية، على طول مصر والعالم العربي، وربما ما تزال أيضًا تقويمات العرس المختلط سارية يجري التعامل بها.

ويورد ابن النديم تفصيلًا للكيفية التي كانت تجري بها واحدة من شعائر وطقوس التضحية بالأطفال، عد ملة أو مجموعة دينية من مئات الملل والنِّحَل عند القبائل المتضاربة المتنازعة التي كانت تسود الشرق الأدنى القديم السابق على ظهور الإسلام وهم الحرانيون، يقول:

> في ثمانية الأولى من شهر «آب» يعصرون خمرًا حديثًا للآلهة، ويسمونه بأسماء مختلفة كثيرة، ويضحون في هذا اليوم بصبي طفل حديث الولادة للإلهة الأم أو للأصنام، يذبح الصبي، ثم يلصق حتى يهترئ، ويؤخذ لحمه، فيعجن بدقيق السميذ وزعفران وسنبل وقرنفل وزيت، ويُعمل منه أقراص صغار مثل التين، ويُخبز في تنُّور جديد، ويكون لأهل السر للشمال لكل سنة، ولا تأكل منه امرأة ولا عبد ولا ابن أمة — أي جارية — ولا مجنون، ولا يطلع على ذبيحة هذا الطفل وعمله إذا عُمل إلا الثلاثة كمرين (الكهنة)، وما بقي من عظامه وأعضائه وغضاريفه وعروقه وأوردته، يحرقه الكمرين قربًا للإلهة.

[٣] الأقباط الثموديين أو الأردن.

وكانت الشرائع الموسوية، التي تبيح التضحية بالأطفال، تشترط التضحية بالابن البكر، سواء من البشر أو من البهائم، بما يؤكد ترجيح كفة أن الضحية كانت إسماعيل؛ لأنه هو البكر وليس إسحاق: «وكلَّم الرب موسى قائلًا: قدس لي كل بكر، كل فاتح رحم من بني إسرائيل، من الناس ومن البهائم، إنه لي»، ويبدو من اشتراط أن تكون الضحية، النتاج الأول أن هذا كان جزءًا من الشعيرة، إذ هي متكررة جدًّا في المصادر القديمة، ويكون متى أدخلك الرب أرض الكنعانيين، كما حلف لك ولآبائك أو أعطاك إياها، إنك تقدم للرب كل فاتح رحم، وكل بكر من نتاج البهائم التي تكون لك، حتى الخبز والطعام، اشترط فيه البكورة: «أول عجينكم تعطون للرب رفيعة في أجيالكم.»

والتضحية بالأطفال، عادة شعائرية ليست بقاصرة على شعوبنا السامية، حيث كانت تمارس في أغلب مجتمعات العالم القديم، وما تزال لها بقاياها السارية عند عديد من القبائل البدائية منها ما كان قد أشار بها سير جيمس فريزر، من أن البولينسيين، وبعض قبائل جزر تاهيتي، يقتلون ثاني ثلاثة أطفال من ذرياتهم. وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر نشرت «مسز تيورا هنري» مسودات وأبحاث جدها المبشر «ج. م. أورسموند» التي أكدت ما أشار به فريزر من أن اثنين من ثلاثة أطفال، كانوا يُقتلون قبل أن ترى عيونهم ضوء أول يوم يلي ولادتهم، وكانوا يُعرفون بـ «الأطفال المخنوقين».

وعند قبائل «المايايا» في البرازيل تقتل الأم كل أطفالها، إلا ما تعتقد بأنه آخر أطفالها، أما إذا ما حدث وأنجبت طفلًا غيره، هنا يحل قتل سابقه.

وتوجد حالات ثلاث تبيح قتل الطفل عند الهنود الحمر بأميركا الشمالية؛ إذا ما كان المولود أنثى، أو كسيحًا، أو أحد توأمين.

وفي بعض القبائل يحتم قتل أحد التوأمين، ويفضل وأد التوأم الأنثى، والنساء عند قبائل «الشاكو» ما تزال تئد البنات، رغم تحريم القرآن لوأد البنات (سورة ١٧: آية ٣٣)، والشاكو قبائل ظلت محتفظة بأصلها العربي حتى القرن السادس الميلادي.

وفي بعض القبائل الإفريقية، يؤكل ثاني طفل يولد قبل فطام الأول، وعند الصينيين كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح، فيتم قتل البنات بالطريقة الآتية، يدفنون داخل المقابر أحياءً لفترات محدودة، بما يحقق لهم فرص معاودة الولادة كذكور.

وعند قبائل «كانار» في الإكوادور، عادة التضحية السنوية بمائة طفل، وهي عادة مرتبطة بما يسمى عندهم عيد الحصاد. وعند بعض القبائل المكسيكية كانت تختار

التضحيات البشرية، بحيث تتساوى مع كثرة المحصول، فيضحى بالأطفال حديثي الولادة في فترات إنبات المحصول وبالأولاد الكبار قبل موعد الحصاد، ثم بالعجائز في أعياد الحصاد.

وكان يقال للضحية البشرية قبل قتلها عند قبائل «الخوندز» في البنغال: «لقد بعناك وقبضنا ثمنك كاملًا، ولا خطيئة علينا طالما أننا لم نغتصبك»، وكان الملوك المقدسون، يقدمون أنفسهم للقتل والتضحية بهم عند قبائل «الشيتومي» في الكنغو، ويعتقد أن الفاكهة تنبت من قدرة هؤلاء الملوك على التضحية بأنفسهم؛ لذا كانت توهب لهم أول قطفة من الفاكهة، وكان من المعتقد أن الجدود من الملوك المقدسين في إثيوبيا يرسلون رسلهم المتوالية لسلفهم الملك الحالي، بأن يُقْدم على التضحية بنفسه ليلحق بأسلافه، وينسب للملك «أون» ملك السويد أنه ضحى بأولاده التسعة على التوالي، فبعد أن ضحى بثاني ابن من أبنائه عاهده الإله «أودن» بأن عليه أن يذبح له ابنًا من أولاده عقب كل تسع سنوات كاملة يعيشها، وبعد أن التزم الملك، وضحى بابنه السابع، وكان ما يزال حيًّا، إلا أنه لم يكن يقدر على المشي، فكانوا يحملونه، واصل التضحية بابنه الثامن، وعندما عاش تسع سنوات أخيرة، ممددًا في فراشه لا يفارقه، ضحى بابنه التاسع، وعندما حدثت المعجزة، وعاش تسع سنوات أخرى، وهب بأن يضحي بآخر أبنائه، تدخل الكهنة والشعب وأرغموه على العدول، فمات على الفور ودفن في «أبسالا».

ومما قاله بلوتارخ: إنَّ القرطاجنيين[٤] كانوا يشترون أطفالًا ويضحون بهم، أما إذا حدث وبكت أم الطفل المُضَحَّى به، فإن الشعيرة تفقد معناها، وتبطل على الفور، وعلى الرجل المضحي شراء طفل آخر ... وهكذا.

وكانت الأساطير الهلينية تسمح للملك الأب باستبدال التضحية به بابنه الحبيب، كما حدث في حالة ديونسيوس بن زيوس وهيرا الذي صورته الحفريات يأخذ مكان أبيه بعد أن ارتدى زيه الملكي آخذا مكان أبيه زيوس ليضحي بنفسه بدلًا عنه.

ويبدو أن المصريين القدماء لم يمارسوا شعائر التضحيات البشرية على غير عادات جيرانهم من الفرس والساميين والإيجيين والهنود وغيرهم، ويسوق هردوت حكاية سمعها «بوزيريس»، يقال إنه كان يذبح الأجانب، وظل يمارس هذه العادة إلى أن جاء هرقل إلى مصر وصرعه وقتله، ورغم أن هردوت حكى هذه الحكاية إلا أنه وصفها بالسخف،

---

[٤] التونسيون.

ويقول:[5] «ويلوح لي من هذه الرواية أن اليونانيين يظهرون جهلًا مطبقًا بطباع المصريين وعاداتهم، إذ كيف ينبغي أن يضحى ببني[6] آدم قوم لا يضحون من الحيوان بغير الخنازير والثيران والعجول إن كانت طاهرة، ثم بالإوز!»

والغريب أن ذلك الموقف الذي أدهش هردوت منذ حوالي ٢٥٠٠ عام، وهو التساؤل عن سر تحضر المصريين القدماء على خلاف جيرانهم المحيطين بهم من كافة الجهات، وهو نفسه الموقف الذي حيَّر الكثيرين من الأنثروبولوجيين من أمثال إليوت سميث وتشايلد، القائل بأن ثمة «التقاء فريدًا بين الظروف مكَّن قدماء المصريين أن يخترقوا حلقة الوحشية، وأن يخلقوا المدنية، ويبدءوا نشرها، ولم يثبت وجود العبودية في السجل الأركيولوجي لمصر فيما قبل التاريخ، وحتى في العصور التاريخية المبكرة»، وكما هو متعارف عليه فيما يتصل بنظريات علم الاجتماع المقارن، أو الأنثروبولوجي، وهي العلوم التي نيط بها دراسة الحضارات القديمة والمجتمعات خلال تتابعها الزمني، وإشعاعاتها الانتشارية الحضارية، مثل انتقال الأشياء والمواد من موطن لآخر بما يوازيه بالنسبة للتراث العقائدي من أساطير وشعائر وحكايات شفهية، وحتى الحذر أو الفوازير، وأي ما يتصل من بعيد أو قريب «بنمط» الحكاية الموحدة القابلة للانقسام إلى سلسلة متتابعة من «الموتيفات»، أو التضمينات القابلة للمقارنة.

ولقد تمكَّنت هذه العلوم الحديثة المترابطة، مثل علوم الأنثروبولوجي والأثنولوجي والفولكلور، ومن جانب آخر حضارات ما قبل التاريخ «أركيولجي» من إلقاء المزيد من الضوء على بعضها البعض، وتبادل الخبرات بما يحقق أكبر قدر من المعرفة العامة المتساندة المكتملة الجوانب.

وعلى هذا يصبح تحريم التضحية بالأطفال لدى المصريين القدماء، ظاهرة مخلة بالبناء العقائدي العام الشبه سائد فيما يتاخم مصر من بلاد على طول الشرق الأوسط عامة.

فعادة التضحية بالأطفال ووأد البنات كانت عادة منتشرة بكثرة عند الساميين؛ نظرًا لاعتقادهم الراسخ بأن «الطعام والأطفال هما الشيئان اللذان لا ينالهما الإنسان

[5] هردوت يتحدث عن مصر، ص١٤٢.

[6] ورد في بعض الروايات أنه كان يضحى بالأسرى في أيام الأسرتين: ١٨، ١٩ (١٥٨٠–١٢٠٠ق.م) أحمد بدوي.

إلا بقوى سحرية وشعائرية متصلة ومرتبطة إلى الفضول»، وقد وجدت هذه الشعائر عند الكنعانيين والفينيقيين والموآبيين والإسرائيليين، واكتشفت الأكيولجين، خنق الكنعانيين للأطفال حديثي الولادة بكثرة شديدة داخل الكهوف، وإلى جوارهم أواني الطعام والشراب، وذلك ترضية للآلهة والإلهات التي تهب الطعام والأطفال، مثل «مولش»، و«ميلكوم» و«ميلكارث» و«ميليش» و«يهوه» عند الإسرائيليين الأوائل، عندما كان «يهوه» أو رب الجنود إلهًا فينيقيًّا، وكذلك «للبعل» و«كرونس» عند الكنعانيين الفلسطينيين.

وفي كل غرب آسيا تسود عقيدة تحتم على الملك أو حاكم القبيلة تقديم ابنه ضحية لشعبه في أوقات الأخطار؛ لذا يقول «فيلو» في بحث عن اليهود: يبدو أنها تقاليد بعيدة الغور تقضي بأن يهب حاكم المدينة أو القبيلة ابنه الحبيب مضحيًا به من أجل شعبه لطرد المخاوف والأرواح الشريرة، وكان الأطفال المضحى بهم يجتازون شعائر وتعازيم أسطورية شديدة التعقيد، حتى إن «كرونس» الذي لقبه الفينيقيون بإسرائيل، حين أصبح ملكًا للأرض كان له طفل وحيد يُدعى «شديدًا»، ومعناها باللسان الفينيقي «الوحيد» خلع عليه زيه الملكي، ورفعه على المحرقة في وقت عصيب.

وعندما كان ملك موآب[٧] محاصرًا بالإسرائيليين، وشددوا عليه حصارهم أخذ أكبر أبنائه الذي سيخلفه على عرشه، ورفعه إلى المحرقة الكامنة في أعلى مكان بالمدينة.

ولقد تبدت آثار شعائر التضحية بالأطفال عند الساميين في المصادر اليهودية والسريانية، وكذلك عند العديد من النِّحَل والملل التي كانت سائدة عند أغلب شعوب الشرق الأدنى، والتي ذكرها ابن النديم في «الفهرست» نقلًا عن محمد بن إسحاق، ومنها: النسطورية، الصامية، الديصانية، الغولية، المرمسية، الملورية، والأدوقية النفسطونية، العنزوية، الهيلانية، والحرانية، والكثيرون غيرهم، ثم العربية لحين استبدال الضحية البشرية بأخرى حيوانية، كما جاء في قصة إبراهيم، إلا أنها ظلت سارية المفعول حتى القرن السابع ق.م عند اليهود (الملوك الثاني ١٧، ٣١).

كذلك تبدت عند السريان، وجاءت بها قصة برص قسطنطين الأكبر وشفائه بالمعمودية التي يرجع نصها المنظوم إلى القرن الخامس الميلادي، والتي عثر على نصوصها النثرية المخالفة للنص الشعري، وإن كانت تتفق مع النص الشعري الذي مجمله «إنه نزل برص بقسطنطين الأكبر، فلما انتقل إلى مدينة روما هرب من كان

---

[٧] يرجح أنه ملك موآب الفلسطيني، الذي كانت عاصمة ملكه مدينة أريحا الفلسطينية.

بها من المسيحيين خوفًا على أنفسهم منه، فزاره قوم من الوثنيين، وأخبروه أنه إذا ما كان يريد البرء من برصه والشفاء منه فعليه بجمع أطفال هذه المدينة بالحيلة، وذبحهم والاغتسال بدمائهم، ولما لم يجد قسطنطين الأكبر بُدًّا أمر الملك بذلك، ولما جمعت الأطفال ضجت المدينة جميعها بالبكاء، فكان أن لان قلب قسطنطين، وأعاد الأطفال إلى ذويهم.»

إسماعيل أبو العرب أعظم صيادي البرية

الملاحظ أن دائرة المعارف اليهودية، تؤكد ما جاء به هذا النص الشفهي من أن إسماعيل تزوج زوجتين، وكانت الزوجة الأولى مصرية، اختارتها له هاجر أمه، وأنه أنجب منها أربعة ذكور وبنتًا، وفي قول آخر اثني عشر شيخ قبيلة أو أمير، لكنه تخلى عنها وطلقها[1] حين لم تحسن معاملة أبيه إبراهيم، فقال: إن إسماعيل أنجب ١٢ أميرًا، وتزوجت ابنته «عيسو» أو العيص[2] ابن أخيه إسحاق، الذي أنجبته سارة، بعد أن كبرت وشاخت.

وينسب لإسماعيل سكان الحجاز «العدنانيون» أو المعديون، وعرب اليمن ويسمون القحطانيين، ويقال إنه كان أمهر من ضرب بالنبل، كما يعده العرب أول صانع للسهام والرماح، وأعظم صيادي البرية، وابنه قيدار أبو العرب، الذي أصبح أمَّة — كما تشير أساطير أرض الميعاد العربية وتعدد الآلهة — وذلك من وجهة نظر تلك القبائل العبرية أو اليهودية، أو قبيلة الإلهة «الأنثى» الأم سارة، على أقل تقدير، وتمشِّيًا مع ذلك الصراع المحتدم بين الإلهتين الضرتين، أي سارة وهاجر، خاصة عقب إنجاب — الجارية المضطهدة أو المهانة — هاجر لإسماعيل، والتغريب أو الاتصال الذي أفضى بإسماعيل وقبيلته لأن يصبح أمَّة لها هجراتها، ولها بالتالي أسطورة أرض ميعاد مصاحبة، على عادة ما هو متبع بالنسبة للأقوام السامية بلا استثناء، في ملازمة أسطورة أرض الميعاد أو الحِمى لتواجدها وتوحدها العقائدي والطوطمي، خاصة عقب الكوارث المفضية إلى

---

[1] قد يكون هذا أقدم نص وصلنا عن تعدد الزوجات والطلاق.

[2] يرى المسعودي، مروج الذهب: ١–٤٦ أن الخضر ينحدر من نسل العيص، واسمه خضرون بن عميائيل النفير بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم.

الهجرات القبائلية، مثلما حدث عقب وصول فلك نوح إلى أرض ميعاده، وإعادة تملك الأرض،[٣] وعقب خراب بابل وبرجها الكبير وتبلبل الألسن وانقسامها إلى ٧٢ لسانًا والهجرات المصاحبة، وكذا عقب خراب سد مأرب باليمن، وهجرات قبائل حمير وهمدان، وهي الهجرة التي أعادت تشكيل البنيان السكاني في الشام وفلسطين وما بين النهرين وشمال الجزيرة العربية، وكذا الأساطير المصاحبة للقبائل العبرية، والتغرب في مصر ثم فلسطين والسطو على أرض فلسطين وشعبها.

وتشير أسطورة أرض ميعاد يعرب بن قحطان بن هود الذي أرسله الله إلى أرض بابل نبيًّا ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]، إلى كيف أن هودًا رأى رؤيا «كأن أتيًّا أتاه فقال له: يا هود، إذا ضربت رائحة المسك إليك، وإلى أحد من ولدك من ناحية من نواحي الأرض، فلتتبع تلك الناحية من رائحة المسك، ذلك النسيم حتى إذا كف عنه نزل، فذلك مستقره.»

يقول وهب بن منبه الحميري: «وإن يعرب بن قحطان بن هود وجد رائحة المسك، فقال له هود: أنت ميمون يا يعرب، أنت أيمن، ولدي مر، فإذا سكن عنك ما تجده، فانزل بأرض اليمن لا تمر، فإنها لك خير وطن.»

خلاصة القول: إنه ما من شعب أو رهط أو قبيلة، لم يحفظ لها تراثها وتاريخها أسطورة أرض ميعاد، تحدد لها أرضها ووطنها عبر بحثها عن الزرع والضرع، ومنها سيرتنا الشعرية هذه «سارة وهاجر» المصاحبة لأرض ميعاد إسماعيل أو الهاجريين.

لكن مشكلة المشاكل هي في ضياع وافتقاد هذا التراث على مر عصور الاضمحلال الطويلة الثقيلة القاسية.

ويقال إن تشكك اليهود في يهودية هاجر، قد تزايد عقب اختيارها زوجة مصرية لابنها إسماعيل، وقد يلقي هذا النص بعض الضوء على دفع إبراهيم لإسماعيل لأن يتخلى عنها ويطلقها حين طلب منه هذا عن طريقها: «قوليلو غير العتبة يا صاحب العطايا.»

كما تنسب المصادر اليهودية — خارج التوراة — هذه الحكاية التي تؤكد خروج هاجر على ما تدين به قبيلة إبراهيم ووثنيتها، أو ارتدادها إلى الوثنية.

[٣] الموعودة أو الجديدة، باعتبار أن الطوفان، ما هو سوى انتقال حضاري.

فيقال إن سارة حسدت ذات مرة إسماعيل، إذ وقع بصرها عليه، وهو يمرح ويلعب البرجاس[٤] «وكان أعظم صيادي البرية، فسلطت عليه عين حسود، سقط على إثرها مشرفًا على الموت، حتى إنَّ هاجر دفنته تحت رمل الصحراء وصليا» هاجر لأصنامها، وإسماعيل لربه إلى أن حدثت المعجزة التي قام على إثرها، واسترد عافيته.

كما تضيف هذه المصادر[٥] أنه «ما تزال بالأردن قبيلة تسمى الهاجريين»، وتنسب التوراة لإسماعيل أنه أول إنسان جرت له عادة الطهارة من البشر، وذلك حين عاهد الله إبراهيم:[٦] يُختن منكم كل ذكر، فتُختنون في لحم غُرلتكم، فيكون عهد بيني وبينكم، «فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته، وجميع المبتاعين بفضته، وكل ذكر من أهل بيت إبراهيم، وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله.»

وكما هو معروف، فإن عادات الختان وأخذ الوش ما هي في مداها البعيد إلا مترادفات شعيرة التضحية بـ «الأول» أو «البدء» أو «فاتح الرحم» أو «البكري» أو «أولي الثمار» أو «أول قطفة» ... إلخ.

وكل هذا في النهاية يرجح كفة أن الضحية كانت إسماعيل.

ويصف هذا النص الشفهي نزول الوحي أو الملاك جبريل على إبراهيم الخليل مرتين؛ الأولى حين أعلنت الجوقة هبوطه من السماء؛ ليبلغ إبراهيم بطرد ابنه إسماعيل الطفل وأمه، تنفيذًا لإرادة سارة:

وقتها انشقت السموات، وارتخت الستاير
وانهبط جبريل من الدرجة العليا.

ليبلغ إبراهيم قضاء الله، وليؤكد بشكل ضمني مشيئة سارة:

ربك يهديك السلام والتحية
ربك يقريك السلام، ويقولك يا خليل
اركب وسافر على الدرب الطويل.

---

[٤] لعبة فروسية شعبية شائعة حتى أيامنا.
[٥] التلموذ الأورشليمي أو الفلسطيني.
[٦] (تكوين.)

وفي المرة الثانية، ليبلغه أمر الله، واستجابته لدعاء «البطرق» القادم ابنه إسماعيل «خسارة يا شيخ وأعزه ع الرحيل.»

ولو أن حادث عودة قبيلة إبراهيم من جديد إلى الجزيرة العربية، إلى حيث توجد بئر إسماعيل أو زمزم، الواقعة جنوب شرق الكعبة، وهو المكان الذي فيه نبتت قبيلة إسماعيل وما جاورها مثل بني جرهم، وذلك قبل انتقال إسماعيل واستيطانه برية فاران المتاخمة لمصر، فمعنى هذا أن هذه السيرة الشفهية تكتفي بالسرد والتأريخ لقبيلة إسماعيل أو الهاجريين — كما يروق للبعض تسميتهم — متوقفة عند حادث التضحية بإسماعيل وفدائه بكبش الضحية، وتأديته الدور المنقذ لأبيه وآل بيته، بما يطابق بينه وبين الدور الذي لعبه يوسف عقب بيعه[٧] للمديانيين الذين حملوه إلى مصر، ثم كيف نما وأصبح نائب فرعون، ولجوء إخوته وأبيه يعقوب له، وهي أيضًا تضمينة شائعة في الأساطير والفولكلور تمتد مترافاتها منذ قصة يوسف وأبي زيد الهلالي حتى ملك شكسبير «لير»، والدور المنقذ الذي لعبته الأخت الصغرى بعامَّة الذي عادة ما يلعبه أصغر الأبناء.

فرسالة الملك جبريل لإبراهيم: «خذ سارة»، ثم لكي «يطمن خوفك»، وجبريل هنا إنما يعبر عن تلك القوى العليا التي جاء بها هذا النص، وهي «رب البرية» و«الجليلي»، بما يعني رغبة تلك القوى العليا — في هذا النص — في إذابة قبيلة سارة في قبيلة إسماعيل أو الهاجريين، وذلك بعد تضخم قبائلها وتفجر الماء من الأرض لها، حين ضربها إسماعيل بكعبه، فنبعت بئر زمزم «وصارت في كل وادي»، ويقابله في بعض المصادر والمدونة، مثل «اليعقوبي» الذي يقول: إن «هاجر بعد أن صعدت الصفا، رأت بقربه طائرًا أسود يفحص الأرض برجله»، وبعدها تفجرت بئر زمزم.

وهذا الطائر الأسود رمز ورسول شائع جدًّا في الفولكلور العربي، والسامي بعامة.

أما وصول «جمع المسافرين» وتساؤلهم عن كيفية مجيء الماء هذا المكان الجدب:

كم خطونا من هنا ألف خطوة
لم رأينا عين ولا شفنا مويه.

[٧] سكان شبه جزيرة سيناء.

ثم كيف أخبرتهم «بنت»، حين سألوا عن صاحب البيت، فقالت لهم: «صاحب البيت طفل صغير، اسمو إسماعيل، وأبوه الخليل، نَبَعِتْلُو زمزم بإذن الجليلي.»

ويبدو أنَّ وفد المسافرين هذا هم قبائل جرهم[8] والعماليق الفلسطينيين، كما يقول المسعودي، حين اشتكى إبراهيم لربه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فآنس الله وحشتهم بجُرهم والعماليق، وجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم.

وكما ذكرنا، فإن جرهم والعماليق ينتميان في شجرة — أو نخلة — الإنسان السامية، التي تصل في أنسابها ما بين العرب المستعربة والعاربة والعرب البائدة، فالبائدة قوم عاد،[9] وكانتا دولتين، عاصرتا حكم فرعون الأسرة ١٨ تحتمس الثالث؛ إحداهما في اليمن وعمان وحضرموت وهي دولة «هود»، ثم ثمود التي تملكت الشام والحجاز وفلسطين، وكان إلههم الطوطمي هو — أو الأصح هي — الناقة، التي عقروها لنبيهم «صالح»، فأفنتهم السيول أو الرعاف كعقاب، وكانوا ينحتون بيوتهم ومدافنهم في الجبال.

وفي أخبار الكلدانيين ومؤرخهم الحبر البيروزي أن قوم عاد استولوا على العراق، وتملكت طسم وجديس اليمامة.

أما العماليق، الذين تعاصروا مع إسماعيل، فيقال إنهم تفرقوا أممًا في البلاد، فمنهم الفلسطينيون، وأشهرهم الملك الكائن الخرافي «عوج بن عناق»، كما يقال إن منهم فراعنة مصر، وجبابرة الشام الكنعانيين، كما أن منهم بني الأرقم في الحجاز ونجد، كما يذكر أن بقايا العمالقة لهم ملك في دولة الروم.

فلما مات يعرب بن قحطان، ولي أخوه جرهم الحجاز، إلا أنَّ جرهم طغت حين صار لها الملك، فأكلوا مال الكعبة — كما يتواتر — وكان عمرو بن لحي الجرهمي، وهو ملك كاهن مداح جعله العرب إلهًا، يأتي لهم بآلهة، ويطعم الناس في المواسم، وزعم لهم أن اللات لم يمت، لكنه داخل الصخرة، وروي أنه خرج إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مؤاب من أرض البلقاء وجد أهلها يعبدون الأصنام وأخذ منهم هبل، وحكمه دام ٣٠٠ سنة.

---

[8] المسعودي: مروج الذهب، ص٤٤.

[9] تاريخ العرب القدامى والأمم التي جاورتهم، محمد فخر الدين.

«وهكذا كبر إسماعيل وأصبح أمَّة.»

ويحفظ سفر الخروج أنه أول من «ختن في غرلته».

وبما أن إسماعيل هو الابن البكري، كما هو مقطوع به في كل المصادر؛ لذا فمن المرجح أن يكون هو الضحية، لا إسحاق كما ترى المصادر اليهودية.

وحتى لا تغرقنا هذه المناظرة عن أيهما الضحية إسحاق أم إسماعيل، وهو ما لا يتصل بموضوعنا الخاص بمحاولة إبداء بعض الملاحظات الإثنوجرافية على هذا النص الشفهي المدائحي «سارة وهاجر»، نعود إلى موضوع استبدال الضحية البشرية، بالفداء الذي هو «الكبش» في هذا النص، فهو — بلا شك — العمود الفقري ليس فقط بالنسبة لهذا النص، بل في كل المصادر التي جاءت بقصة إبراهيم الخليل، وإقدامه على ذبح ابنه ترضية للرب، ثم نزول الفداء، ممثلًا في الكبش أو الخروف، ذلك الحدث الهائل، أو هو ذلك التحول الحضاري الذي — وللمزيد من حفظ وتكريم هذا الحدث — عُرف منذ يوم حدوثه الأول بالعيد الكبير أو عيد الضحية أو عيد اللحم، أو العيد الكبير المتوافق مع الدورة التقويمية العربية أو الهجرية القمرية مع شعائر الحج والطواف حول الكعبة، التي شادها للمرة الأولى كلا المضحي والضحية، وحيث يوجد «حجر» إسماعيل الأسود المقدس، الذي ما يزال إلى أيامنا، يُلحس بعشرات ملايين الألسن والأمم.

الملاك جبرائيل وبراقه

ولعلها أروع صور الخيال الشعبي الفولكلوري الإسلامي تعبيرًا عن الملاك الرسول «جبرائيل» والبراق الذي يمتطيه ليهبط به من السماء، أو ليعود به ثانية إلى داره الأولى، حين ينهي مهمته بإبلاغ وحي أو رسالة.

كما تجدر ملاحظة تضافر الإيقاعات الموسيقية، وتجميع أقصى طاقات صوتية لمداحي ومغني هذا النص «سارة وهاجر»، حين يرد في النص الوصف الشعري للملاك جبرائيل:

وقتها انشقت السموات وارتخت الستاير
انهبط جبريل من الدرجة العليا
انهبط جبريل ومعاه الأصيلة
بالبراق صاحب التاج والوسيلة
خلقته اللي محاسنها جميلة
وجهه كالآدمي يحاكي الثريا
وجهه كالآدمي لله صفاته
الجناحين من جواهر ربي نشاهم
والحوافر من يقوت زانوا صفاته
والضلوع من جواهر ربي نشاهم.

والملاحظ أنَّ هذه الوحدات الميثولوجية العربية الإسلامية، الأخاذة الباهرة للملاك الرسول جبريل، وبراقه أو مطيته التي يدعوها هذا النص بـ «الأصيلة»، ولعلها بذاتها

«فرسة النبي»، وما تزال هذه الوحدات محفوظة داخل التشكيل الإسلامي، سواء في وحدات وموتيفات رسوم الكتب والوشم والنسيجات ومناسك الحج.

واللافت أنَّ الملاك الرسول جبرائيل «جبرا» الإله «إيل» يتبدى واضحًا في هذا النص مرتين، هابطًا ببراقه من السموات العليا في المرة الأولى ليبلغ إبراهيم، برغبة «الإله» في الرحيل أو الإسراء من أرض فلسطين أو بلاد القدس إلى برية فاران أو أرض مكة، التي يبدو أنها كانت تعرف بأرض جعفر قبل تسميتها بمكة:

قال جبريل السلام من حي قادر
ربك يقريك السلام والتحية
ربك يقريك السلام ويقولك اركب يا خليل
اركب وسافر على الدرب الطويل.

وهكذا ركب ثلاثي العائلة الخالد إبراهيم وهاجر وبكره إسماعيل «البراق جبرائيل» إلى أن أنزلهم حيث موطنهم المقدر أو أرض ميعادهم التي يحفظ لها النص تسمية أرض جعفر بدلًا من التسمية التوراتية «أرض فاران».

وفي المرة الثانية يظهر جبريل متبديًا مبلغًا إبراهيم باللحاق والانضمام لإسماعيل وقبيلته الذي كبر بدوره، فأصبح بطرقًا تستجيب له المياه، وتنبع لضربة قدمه، وتأتيه الرؤى التي يتمنى فيها وعبرها رؤية أبيه، فيستجيب له الوحي بدوره:

انهبط جبريل من الدرجة العليا
انهبط جبريل على الخليلي
قاللو يقريك السلام الجليلي
خذ سارة يا شيخ واعزم ع الرحيلي
عند سماعين واجتمعوا سويا
عند سماعين اجتمعوا يطمن خوفك
إسماعيل دعا ربه إنه يشوفك.

فالنص العربي الفولكلوري الشفهي هذا — سارة وهاجر — يحفظ لإسماعيل دور المنقذ لأبيه وبيته، وهو ما لا يرد له أثر، سواء في النصوص العبرية أو الإسلامية الدينية والتقليدية.

بل إنَّ إسماعيل يرد ذكره هامشيًّا في القرآن مع مجموعة من «الرسل» أو الأولياء المجهلين ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ (سورة ص: آية ٤٨).

فاللافت أنَّ إبراهيم وآل بيته، وأصل انتقاله أو رحلته هذه المرة بغير إسراء على ظهر البراق الرسول جبرائيل كالمرة السابقة، حين أسري به من «بلاد القدس» لمكة أو أرض جعفر، على ظهر المطايا أو الحمير (المقدسة):

سمع كلامه إبراهيم شد حالًا ع المطية.

ولعلها ذات الحمير أو الأتان، التي استهوت شاول أول ملوك إسرائيل فتبعها أو عبدها، واعتبرت خطيئة بسببها جز الفلسطينيون رأسه، وعلقوها على عتبات إلههم داجون، إله الحنطة.

فيلاحظ أنه في حالة هجرة ونفي عائلة إسماعيل وأمه هاجر، حين ضمهما إبراهيم وتهيأ للرحيل، جاءه الملاك جبرائيل ببراقه الطائر، فأركبهم وأسرى بهم من فلسطين لمكة.

لكنه في الحالة الثانية اكتفى بمجرد إبلاغه رسالة الرحيل، دون أنْ يركبهم ويسري أو يطير بهما؛ أي إبراهيم وسارة:

سمع كلامه شد حالًا على المطية
سمع كلامه، خد سارة وسافر.

وجبريل في الميثولوجيا العربية هو رئيس ملائكة الرحمة، وأحد الملائكة الثلاثة المصرح بذكرهم في القرآن: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل»، والأخير وهو إسرافيل أحد حملة العرش الذي يصفه جبريل بقوله: «وهو الذي ينفخ في الصور نفخات ثلاث؛ أولاهن نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث.»

وصوره النبي محمد بقوله: «جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه التهاويل.»

وتضيف المصادر الميثولوجية العربية الكلاسيكية: «إنه من شدة قوته رفع مدائن قوم لوط، وكنَّ سبعًا بما فيهنَّ من الأمم، وكانوا قريبًا من أربعمائة ألف، وما معهم من الدواب والحيوانات، وما لتلك المدن من الأراضي والمعتملات والعمارات وغير ذلك، رفع ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهنَّ عنان السماء، حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكتهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، فهذا هو شديد القوى.»

وواضح هنا أنه هو ذلك القوي، الذي أفتى مدينتي البحر الميت «الآثمتين» سادوم وعمورة، ومن بينها سادوم وقراها الخمسة.

ويظهر جبريل في أساطير الخلق الثلاث؛ العبرية والعربية، وعند أساطير خلق الفلاشا الإثيوبية كأحد رسل الله الثلاثة؛ لإحضار الطين المقدس من المياه الفطرية، حين أراد الله تشكيل العالم والإنسان.

إلَّا أنه يتبدى في الأساطير العبرية كإله الموت، وأمير النار والرعود، إلَّا أنه يرد في كل الأساطير العربية كأحد مبلغي الرسالات، وقال عنه «لونجفيلو»: إنه ملاك القمر، وقد ظهر لمريم في العهد الجديد (لوقا: ١–٢٦) وتعده التقاليد الأسطورية العبرية، الملاك الذي يتكلم السريانية والكلدانية، وهو الذي فسَّر رؤى دانيال، وأحد الملائكة السبعة الذين يقدمون عرش الرب في الأساطير الرومانية، كما تروي عنه الأساطير العربية أنه «رأى آدم اثني عشر مرة»، ويُعرِّف الطبري جبريل بأنه أول من نزل على آدم بالحنطة «سبع حنطات» حين جاع آدم عقب طرده من الجنة، وحين سأله آدم: ما هذا؟ أجابه جبريل: «هذا الذي أخرجك من الجنة.» ثم علَّمه كيف زرعه وحصده وجمعه وفركه وطحنه وعجنه، ثم أمره أنْ يخبزه خبز ملة.

ويظهر جبريل في الفولكلور الإنجليزي، مسبوقًا بكلاب شرسة تسمى «كلاب صيد جبريل»، ومهمتها أنْ تعض وتؤذي الأرواح الشريرة في صعودها خلال السماء، ويتوحد جبريل مع الإله هرمس في الميثولوجيا الفرعونية؛ نظرًا لأن كلًّا منهما كان من مهامه النزول إلى الهاوية، أو هاديس أو صقر لإبلاغ رسالات.

ولما كان هرمس في أساطير ما قبل الهلينية، إلهًا مصريًّا، خليطًا من خصائص الإلهين المحليين المصريين «تحوت»، و«جحوتي» إله دمنهور المحلي، وله رأس أبي منجل، ويعرف بإله القمر و«أنوبيس» أوبنو أحد آلهة الموتى، حارس الأرواح في العالم الآخر، والابن غير الشرعي لنفتيس وست، وكان يصور على هيئة كلب متعدد الرءوس، ويقال إن جبريل يتبدى في الفولكلور الإنجليزي والأيرلندي مزيجًا من هذين الإلهين «تحوت وأنوبيس» المصريين، ثم هرمس في الأساطير اليونانية.

أمَّا الميثولوجيون العرب، فقد وحدوا هرمس «بمعنى عطارد» بالنبي إدريس، الذي هو «أخنوخ بن لود»، الذي يقال إنه أول من درز للدروز، وخاط بالإبرة، واستجاب له ألف إنسان ممن كان يدعوهم، فلما رفعه الله اختلفوا بعده، وأحدثوا الأحداث إلى زمن نوح، وهو أبو جد نوح، وعن هب بن منبه «وإنما سمي إدريس لكثرة ما كان يدرس من

كتاب الله»، ووصفه ابن قتيبة، بأنه كان «أحسن خُدَّام الله، فرفعه الله إليه»، كما تنسب له بعض المصادر العربية، أنَّ إدريس أول من خط بالقلم، وهي أهم صفات الإله المصري «تحوت» الذي درب الناس على الآداب والفنون، وابتكر لهم الكتابة الهيروغليفية، فكذلك يُعد تحوت أول «مسجل» أو «مذكر» في العالم القديم.

وأخيرًا، فإذا ما كان الإله هرمس عند اليونان هو مزيج من الإلهين المصريين «تحوت» و«أنوبيبيس»، كما أنه أمكن تصنيف جبريل وإدريس مع هرمس المنحدر من اللاهوت المصري.

هذا بالإضافة إلى أن الملاك «جبريل» قد كشفت عنه الحفريات الحديثة، وأنه يعرف بنفس تسميته العربية السامية جبرائل، أو رسول الإله إيل كبير الآلهة السامية.

وإيل — كما ورد — فهو الأصل المبكر لإبراهيم، وكذا لكرويس أو ساتيرون اليوناني، كما يتضح من تأريخ كل من «سنكن أتين» وقيلو الجبلي أو الدمشقي اللذين حاولا إثبات أن الميثولوجي الكنعاني الفلسطيني السوري هو الأصل الأول للاحقه الهليني اليوناني، منذ أكثر من ٢٠ قرنًا.

ومن هنا يمكن إلحاق إبراهيم وتوحده بكليهما، من حيث توافر عنصري التوحد والتطابق.

وفيما يلي النص الشفهي الفولكلوري لسارة وهاجر.

سارة وهاجر (٢)

النص الشفهي الفولكلوري

كانوا سارة والخليل أيام صباهم
بادعين في الحسن والمولى عطاهم
مدة من الأيام ولا بلغوش مناهم
من الدراري[١] لا صبي ولا بنية
من الدراري لا صبي يا ابن الأكابر
يا خليل الله لايمتة تِنَنِّ[٢] صابر
قوم خش واتزوج بهاجر
لأنها حرية[٣] شريفة ومهتدية
لأنها حرية أنا خايف عليكي
بس من غيرة النسا قاسية عليكي
حالف يمين العمر ما اتجوز عليكي
لو عطوني في خلافك مية صبية

---

[١] الخلفة والذرية.

[٢] تظل.

[٣] حرة.

مية صبية في خلافك لو سمحتي
أفعل يا بنت عمي بما أمرتي
بس يا سارة على الغيرة صبرتي
ينبني لك قصر في الجنة العليا
ينبني لي قصر بس إذا كنت راضي
اسمح تزوج وأنا اللي أبلغ مرادي

* * *

وقتها بونا الخليل عقد العقادي
وانقضالو الأمر وسارة مرتضية
وانقضا لو الأمر وسارة سبحتها
بالزبد والعطر حنة وخضبتها
جلستها للخليل وقدمتها
قام عليها[٤] خش سعدت في البرية
قام عليها خش سعدت في خباها
حبله في إسماعيل وآدي المولى عطاها
مدة خمس أشهر ومرت من خباها
سارة شافتها بأت في نار قوية
سارة شافتها بأت في نار وحيرة
من وحم هاجر لحقها كل غيرة
قالت لها: يا ضرتي بطنك كبيرة
الوحم باين عليكي يا صبية
الوحم باين عطاك رب البرية
الوحم باين عطاك رب العبادي
دا زمن غدار وأنا اللي ما بلغتش مرادي
بس أنا اللي الضنى أكوى فؤادي
إيه يكون الرأي يا دنيا بلية

---

[٤] قام فدخل عليها فحملت.

إيه يكون الرأي يا دنيا بلاوي
انجرح كبدي ومالقيتلوش مداوي
يا خليل الله لاومته ناوي
ياللا خد هاجر وسافر من قبالي
ياللا خد هاجر وسافر من قصادي
ارميها وسط الخلا ووحوش الجبالي
ارميها وسط الخلا
الوحش ياكل في عضاها
ينهش الجتة ويشرب من دماها

* * *

قال لها: ما بتخفيش مولى الموالي
كيف أنا أرميها وتلزمني الخطية
كيف أنا أرميها وضنايا في حشاها
تشتكينا للكريم من طين نشاها
ما هو انتي يا سارة السبب في مبتداها
ليه كده غِرتي وأحوالك ردية[٥]
قالت: ما غرتش أنا أحلف يميني
من إله العرش رب العالمينى
إنْ هاجر جابت بنية يا ضي عيني
في الديار أقعد أنا وهية سويا
في الديار أقعد لا حبدي ولا أبدي[٦]
إنْ هاجر جابت ولد ما تقومبو عندي
خدها وارميها في جبل الصيرونديِ
بين خلا وجبال ووحوش كاسرية
بين خلا وجبال الوحش ينهش في عضاها

---

[٥] رديئة.

[٦] مستسلمة طائعة، لا أبدي شيئًا أو رأيًا.

ياكل الجتة ويشرب من دماها
قال تُكالي على الكريم من طين نشاها[٧]
رب متكفل من جميع الناس وبية
رب متكل عليه زاد اتكالي
الإله يعلم بحال الناس وحالي

* * *

أكملت هاجر شهورها[٨] والليالي
وضعت اسماعيل أبو القامة البهية
وضعت اسماعيل وسارة استقبلاته
قطعت السرة وبعدين قمطاته[٩]
قطعت السرة وبعدين كحلاته
أرمته لأمه وهيه في نار قوية

* * *

أرمته لأمه وقالتلو هِمِّ سافر
يا خليل الله أدي إسماعيل وهاجر
ياللا خد هاجر قوام من عليه
حالفة يمين أنا يا ابن الأكابر
ياللا ارميهم قوام وارجع عليه
ياللا ارميهم وارمي الطفل برًّا
حالفة سارة ما يكون في البيت ضرة
بكى الخليل، وقال الفراق له نار حارة
صار آهو يبكي ودمع العين مويه
صار آهو يبكي ودمع العين يعينه
الإله يعلم مجال الناس وحيله

---

[٧] الذي أنشأها من طين.
[٨] شهور حملها.
[٩] منطقة الوليد وتقميطه.

ضم هاجر وإسماعيل جوا حضينه
قام مسافر وخلاقه يعينه

* * *

أنزلت الشمس بعد الضحاوي
أنزلت الشمس وعاد الحر ثابت
والجبال تصفر[١٠] على فراق الحبايب
نطقت هاجر قالت: قلبي مكوي ودايب
فين موديني ولا معايا مويه
فين موديني العطش كوى فؤادي
والفزع والليل ووحش الأراضي
والفزع والليل[١١] ولا عبادي
سارة أزمتنا بغيرتها القوية
سارة أمتنا الخليل زاد همه
صار آهو يبكي ودمع العين رمه
قال يا كريم تشفع لاسماعيل وأمه
يا كريم يا صاحب العظمة القوية
يا كريم يا حنين ما لينا حد غيرك
تعمنا يا خالقي بجودك وخيرك
بالسبع سموات ومحمد رسولك
اسمه في التوراة وفي الإنجيل سويا
اسمه في التوراة وفي الآية محرر
طه مع ياسين وهو العلم لمظهر
صرت بين سارة وهاجر متحير

---

[١٠] تصفر عواء.
[١١] أعترف بفشلي في استكمال بقية شطرة هذا البيت وتفريغها من النص الغنائي الموسيقي، الذي سجلته منذ سنوات.

لما بقيت أسير ولا معايا مطية[١٢]
صرت في سارة وهاجر متحير

* * *

لما بقيت أسير وعاد الحر ثابت
والجبال تصفر على فراق الحبايب
وقتها انشقت السموات وارتخت الستاير
انهبط جبريل من الدرجة العليا
انهبط جبريل ومعاه الأصيلة
بالبراق صاحب التابع والوسيلة
خلقته اللي محاسنها جميلة
وجهه كالآدمي يحاكي الثريا
وجهه كالآدمي لله صفاته
الجناحين من جواهر ربي نشاهم
والحوافر من ياقوت زانو صفاته
والسلاسل في الجناحين مرتخية
السلاسل في الجناحين زانوها
والضلوع من جواهر ربي نشاهم

* * *

قال جبريل السلام من حي قادر
ربك يقريك السلام والتحية
ريك يقريك السلام ويقولك اركب يا خليل
اركب وسافر على الدَّرب الطويل
لما رسوا على أرض جعفر يا خبيري
قال هنا وأمر بكم رب البرية
قال هنا وأمر بكم مخلفش قولو
قنا صابر على كل اللي يقولولي

---

[١٢] حمارة يمتطيها.

وقتها جاب القماش قام نصبولو
وارتجع تاني لداره الأولية
قال الخليل قومي يا هاجر
خشي جوا البيت يا بنت الأكابر
واصبري يا هاجر لحكم حي قادر
قلبي من الفراق مليانة بلية
قلبي من الفراق ما فيها سلامة
دا أنا مسافر وفايتكم يتامى
اجتماعنا بيكون يوم القيامة
ربنا يحفظلك ابنك يا صبية
ربنا يحفظلك هاجر زاد بكاها
هيه واسماعيل ولا حدش حداها
هيه واسماعيل من طين نشاها
لا حداها زاد ولا شربة مويه
لا حداها زاد وودعها وسافر
العطش والجوع حرق كبدك يا هاجر

* * *

انطق إسماعيل بقدرة حي قادر
أرمته على الأرض وسافرت مدارية
وطلعت فوق عالي الجبال
لجل ما تنظر عين ميتها زلالي
ما لقيتش رجعت قوام في تو الحالي
انطق إسماعيل أبو القامة البهية
وقال بالصدق هادي
يا إلهي العطش أكوى فؤادي
اضرب إسماعيل بكعبه ع الأراضي
أنبعت زمزم وصارت عين قوية
نبعت زمزم صارت في كل وادي

* * *

يرجع مرجوعنا يا سامعين لأبوه الخليلي
افتكر إسماعيل ودموعه تسيل
صام عن الطعام وشرب المويه
بات حالته عجايب
والدموع تجري على فراق الحبايب
أنطقت سارة وقالت
قلبي مكوي ودايب
دا البكا والنوح صعب عليه
دا البكا والنواح
زايد وعايد
يا خليل الله مال النوح زايد
قالها شفت إسماعيل وأنا راقد
خاطري أسافر له ما تحلفيش عليه
خاطري أسافر له أنا صابح مسافر
قالتلو احلف يامين من الذنب غافر
إنك ما تنزلش ولا تروح يم هاجر
ياللا قوم زورهم قوام وارجع عليه
ياللا قوم ودعها وسافر
قصد الجرايم إسماعيل وهاجر
يلقى المال كثير وسط العشائر
غنم وجمال وخيول عليه
غنم وجمال وخيول من كتير
يسأل الرعيان ودموعه تسيلي
قالولو المال دا يا شيخ مال اسماعيني
ابن إبراهيم وربه البرية
ابن إبراهيم المال دا كله
قال إبراهيم المال دا كله

قال يا رب كتروا، لم تقله
لكن يا عرب تعالوا ودوني محله
قالوا قدامك يا سيدي سير شويه
قالولو قدامك يا شيخ كل الذخاير
بيت إسماعيل عالي وله ستاير

* * *

لما راح ع البيت نادى قال يا هاجر
طلعتلو من جوا البيت صبية
قالها صاحب البيت فين يكوني
قالتلو غايب برا يا عيوني
قالها وانت يا بنت إيه تكوني
قالتلو أنا مرته وبتسمى الهنية
قالتلو أنا مرته وبتسمى العفوفة
قالها محدش يا بنت يكرم ضيوفه
من بلاد القدس أنا جي حاشوفه
قالتلو سافر يا شيخ ومعاه صرته[١٣]
سافر يا شيخ ومعاه جماعة
قالها: خدي الكلام مني وداعه
قوليلو بيجيلك هنا شيخ كل ساعة
خاطره يشوفك من قبل المنية
خاطره يشوفك من قبل المنايا
قوليلو غير العتبة يا صاحب العطايا

* * *

لما جا إسماعيل وحكتلو الحكاية
قالها روحي انتي حرمتي عليه
قالها روحي انتي عليه حرام

---

[١٣] صرة المال.

دا أبويا شيخ عليه أزكى السلام
لما ما لقيكيش خدتيه في اكترام
ارتمى ع الأرض ورشوا عليه مويه
ارتمى وقال يا ترى فين حبيبي
يا ترى أبويا بعيد والا قريب
يا إلهي تجعل لابويا نصيب
يا إله تنعم يا أبويا عليه
ترسل أبويا الخليل يأتي حدانا[١٤]

* * *

السنة فاتت وتاني عام أتانا
حين تزوج بنت شيخ كل البرايا
حين تزوج بنت شيخ كل القبائل
أبوها شيخ وزايد الكرامي[١٥]
الخليل نايم في لذيذ المنامي

* * *

شاف إسماعيل نزلت دموع العين مويه
شاف إسماعين البكا جرح جفونه
والدموع تجري كبحر من عيونه
شد على بَكْره يَمِّ إسماعين وهاجر
قالها مفيش أجازة يا بنت هاجر
إني أنزل وأفوت البكر هذا
جبتلو اللبن الحليب ويا لمزازة
شايله الطعام وعلى يدها المويه
شايله الطعام وقالتلو يا سيدي تفضل
ربنا أنعم علينا ثم فضل

---

[١٤] عندنا.
[١٥] الكرم.

سمى باسم الله ع الكريم توكل
كَلْ من الطعام وشرب الموية
كَلْ من الطعام وقالها شيلي يا بنت
كتر الله خيرك بما فعلتي
لما ييجي إسماعيل قوليلو يا بنتي
صيغ عتبة الدار من الفضة النقية
صيغ عتبة الدار ودعها وسافر
صيغ عتبة الدار يا ابن هاجر
صيغ عتبة الدار ودعها وسافر
باست أياديه ودعها وسافر

* * *

لما جا اسماعين حكتلو الحكاية
قالها زدتني غلاوة يا صبية
قالها زدتني غلاوة يا ضيا عيني
ما فيكيش تفريط حتى تدفنيني
أبويا مرتين وهوا ياجيني
ما أمر ليش إني أشوفو رب البرية
ما أمر ليش إني أشوفو دا حكم ربي
يا كريم يا حنين تغفر لي ذنبي
ترسل أبويا الخليل يأتي لي عندي

* * *

انهبط جبريل من الدرجة العليا
انهبط جبرين على الخليلي
وقاللو يقريك السلام الجليلي
خد سارة يا شيخ واعزم ع الرحيلي
عند إسماعين واجتمعوا سويا

عند إسماعين يطمن خوفك[١٦]

* * *

إسماعين دعا ربه لأنه يشوفك
قالوا أخي أنت صادق في قولك

* * *

سمع كلامه شد حالًا ع المطية[١٧]
سمع كلامه خد سارة وسافر
قصد الجره يم إسماعين وهاجر
لما راح عند إسماعين يا أكابر
عنقوا بعضيهم جميعًا بالسوية
عنقوا بعضيهم جميعًا بالتمامي
الخليل وابنه عليه أزكي السلام

* * *

ولما علموا العرب كلهم بالتمام
أكرموا إبراهيم وزادم في التحية
أكرموا إبراهيم عشان إسماعين
لما عرفوا إنه أبوه الخليلي

* * *

الخليل نايم وشاف منام طويل
دبح إسماعين ابنه نهار الضحية
دبح إسماعين ابنه ومنه الدم يجري
قام على حيله صلى صلاة الصبح بدري

* * *

قال يا هاجر المنام دا توه فكري
نادى إسماعين خليه يأتي إليه

---

[١٦] أي: لكي تطمئن قليلًا، ويزول خوفك.

[١٧] أي: الحمارة التي يمتطيها المخايل، وقد أشرنا إليها سابقًا، وإلى دورها الطوطمي والأسطوري.

نادى إسماعين خليني أشوفو
كحلي لي عنيه وحني كفوفي
اللي انكتب ع الجبين لازم نشوفو
دبح إسماعين ابنك رأيته يا صبية
دبح إسماعين رأيته بالتمام
دا وعد وربي ولا فهمش الكلام

* * *

انطقت هاجر وقالت بالتمام
دبح إسماعين ابني في رضى ربي شوية
دبح إسماعيل في رضى ربي رضيني
لجل المنام اللي أنت شفتو يا خليل

* * *

طلعت تجري لإسماعين في بيته
كلم أبوك يا إسماعين معاه قضية
كلم أبوك يا إسماعيل معاه حكاية
قام على حيله يجري وزاد بيها هداية

* * *

لما راح ع البيت نادى قال يا أبويا
يجعلك يا والدي راضي عليه
يجعلك يا والدي راضي عليه أنت وهاجر
قاللو نام لما ادبحك يا ابن الأكابر
انطرح على الأرض والخليل مشاور
قام سحب سكينة مسنونة مضية
قام سحب سكينة مسنونة جريحة
ناوي يدبح إسماعيل أبو القامة المليحة

* * *

أنطقت السكين وقالت: مللا فضيحة!
دبح إسماعين يا ربي بلية

دبح إسماعين بلية يا خليلي
دا أنت مرسل أرسلك رب الجليلي

* * *

انتنت السكينة في يد الخليلي
انفدى اسماعين بكبش للضحية
انفدى اسماعيل بكبش التمام
لجل تفسير الخليل في هذا المنام
والعرب كلهم ضحم بأنامي
صار من الزمان هادا عيد الضحية
صار من الزمان هادا العيد الكبير
وعيد الفطر هو العيد الصغير
والزكاة فرضها علينا الجليلي
سمعونا الفاتحة لخير الجميل.

(انتهت)